الكتاب الثالث

المسلمون فى لعبة اليسار واليمين

وائل عثمان

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

obeikan.com

المسلمون فى لعبة
اليسار واليمين

اسم المؤلف: مهندس وائل عثمان
الطبعة الثانية: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
١٩٢ صفحة ١٤ × ٢٠ سم
رقم الإيداع: ٢٢٦٥٩/ ٢٠١٠
الترقيم الدولى: I.S.B.N.
977-17-9988-6

تحذير
جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأى وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أى نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher

obeikan.com

إلى شهداء ثورة ٢٥ يناير
هنيئاً لكم بما فزتم به
لاتنسونا يوم الشفاعة
فإن كان الله قد فضلكم علينا
فقربانا إليكم أن كنا معكم
المؤلف مع شباب الثورة
فى إعتصام ميدان التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة

صدر الكتاب الأول من سلسلة "حزب الله فى مواجهة حزب الشيطان" تحت نفس الاسم وذلك عام١٩٧٥ كخواطر لشاب مسلم شاءت له الأقدار أن يخطو أولى خطوات دراسته الجامعية بهندسة القاهرة فى عام الهزيمة المدوية سنة ١٩٦٧، وهى الهزيمة التى زلزلت كيان الأمة وخاصة الشباب . وقد أخذت على عاتقى محاولة تحديد معالم طريق النجاة بالعودة إلى أصولنا الإسلامية ، لكن كان يتحتم علىَّ أولاً أن أناقش الأفكار المطروحة من شيوعية ورأسمالية حتى يطمئن الشباب لصحة وقوة اختيارهم للإسلام كنظام شامل متكامل فكان هذا الكتاب .

وقد كان من المفترض أن يتلوه الكتاب الذى يحدد الملامح الرئيسية للمشروع الإسلامى لكنى أرجأت ذلك لحين الانتهاء من كتاب "أسرار الحركة الطلابية" والذى سجلت فيه أهم أحداثها

حتى يكون مرجعاً موثقاً لأزهى فترات النشاط الطلابى بالجامعات المصرية طوال تاريخها.

وللأسف لم تكتمل السلسلة لأنه بحمد الله تم اعتقالى ومنعى من الكتابة لا لسبب إلا لأننى دعوت للعودة إلى طريق الله!

ولأن الإنسان خلق ضعيفاً ولأسباب عديدة ليس من حقى إزعاج القارئ بها فقد توقفت إلى أن هالنى ما وصل إليه حال شباب الإسلام من اهتمام بالقشور وصغائر الأمور فعدت للكتابة محذراً وموجهاً تحت عنوان "اغتيال الصحوة الإسلامية .. تلاقى أعداء الخارج وجهلاء الداخل" ثم رأيت أن أعود لما تركته من سنين فكتبت "نحو مشروع حضارى إسلامى .. بحث موجز فى مفرداته"

وقد نصحت بإعادة طبع الكتب الثلاثة الأُوَل من هذه السلسلة، وإنى إذ فعلت لأدعو الله أن يحقق بها الفائدة المرجوة خاصة وأن الواقع الذى دفعنى للكتابة فى السبعينيات من القرن الماضى قد عاد، وربما بصورة أسوأ، وكأنه قد كتب علينا التخلف والتحرك للوراء دائماً!

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عندما شرعت فى كتابة هذا الكتاب عام ١٩٧٧م لم يخطر ببالى قط أننى سأحيا حتى أشهد سقوط الشيوعية ممثلة فى الاتحاد السوفييتى ، ليس لظنى بمتانة أساسها الفكرى وإنما لعلمى بطول امتداد عمر الأمم عادة قبل أن تنخر فيها عوامل السقوط . ولا أدعى أننى كنت أتنبأ باقتراب نهاية الشيوعية لكنى حاولت أن أشرح ببساطة ضعف ووهن الأساس الذى تقوم عليه مما يحتم انهيارها ولو بعد حين .

ثم شاءت الأقدار مرة أخرى أن تكشف الأزمة المالية فى عام ٢٠٠٨ خطأ الفكر الاقتصادى المؤسس للنظام الرأسمالى حتى رأينا مفكرين بل رؤساء دول غربية ينادون بضرورة البحث عن نظام ثالث لإنقاذ الحضارة البشرية وإن كان البعض هناك مازال

يؤمن بقدرة النظام الرأسمالى على تصحيح مساره دون الحاجة لنظرية جديدة .

إذن انهارت الشيوعية واقتربت نهاية الرأسمالية ونحن - كمسلمين - خارج الصورة لاناقة لنا ولا جمل رغم أننا أصحاب الطريق الذى تبحث عنه البشرية . لكن بدلا من أن نكون أداة لهداية البشر ، انشغلنا بتوافه الأمور وتصدر الجهلة منا الصفوف فحق علينا التخلف وأصابنا غضب الله لانحرافنا أولا عن طريقه المستقيم ثم لتقاعسنا ثانياً عن هداية عباده فى مشارق الأرض ومغاربها .

* * *

القاهرة ٢٠١١م

١٤٣٢هـ

obeikan.com

لماذا هذا الكتاب ؟

"نحن مع اليسار لأنه يعنى الثورة على الأوضاع التقليدية البالية والحرب ضد الاستغلال والاحتكار . وهى مبادئ وأفكار قامت على أساسها الدعوة الإسلامية" .

"نحن مع اليمين فى دعوته للاقتصاد الحر ، لأن الحرية والملكية من دعائم الحياة الإسلامية"

.... هذه آراء سمعتها من أفواه تنطق بأن " لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله" !

بل – وأقسم – إننى قرأت لبعض شبابنا قولهم " نحن مع اليمين استناداً لقول القرآن الكريم : ﴿ **وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ* وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ..** ﴾ إلى آخر الآيات .

وذهب البعض لحد الاعتقاد بضرورة الانضمام لحزب معين نتيجة لتفسير خاطئ للآية الكريمة ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾!!

هل هو جهل؟

يا حسرتاه على ما آل إليه تفكير أمة "محمد" حتى أن شبابها أصبحوا يختلفون حول الانضمام إلى اليسار أو إلى اليمين.

هل هو جهل؟

إن الإنسان لا يجهل إلا إذا غابت عنه الحقيقة ، فما أقسى وأبشع جريمة علماء الإسلام وهم يَدّعُون شباب الأمة الإسلامية فريسة للأفكار المادية اليسارية واليمينية ، ولا يقدمون لهم الإسلام كنظام مستقل متكامل يقوم على عقيدة التوحيد.

عم الجهل حتى ظن شباب الإسلام أن لدينهم مكاناً فى الفكر اليسارى أو اليمينى.

ولو صدر هذا الظن عن شاب يؤمن بالماركسية أو الرأسمالية ما أعرناه انتباهنا ولا اهتمامنا ، أما وأن أصحاب هذه الآراء من الشباب المسلم المؤمن بإسلامه الرافض للماركسية والرأسمالية فهذا لعمرى نذير كارثة تكاد تقوض دعائم النظام الإسلامى وتصيب دين الله فى صميم جوهره وأساسه.

إن قضية اليسار واليمين ليست قضية سياسية فحسب ... إنها أعمق وأشمل من ذلك بكثير إنها قضية اختيار المرء لنوعية الحياة التى يحياها.

إنه اختيار يحدد للإنسان مساره الاقتصادى والاجتماعى والأخلاقى بجانب مساره السياسى . ذلك أن النظام العام الذى يشكل حياة الإنسان هو وحدة مترابطة تتشكل حلقاتها من منبع واحد يضفى عليها طابع التناسق والانسجام ، فإذا ما تعددت واختلفت حلقات وحدته ، ضل الإنسان وأصابه القلق والتوتر وهو ما نراه اليوم واقعاً فى حياتنا المعاصرة وما ذلك إلا بسبب غفلتنا عن قضية الاختيار.

والإنسان – أى إنسان – يحتاج دائماً لكى يحيا أن يختار، وأن يرتبط بنظام معين . يستوى فى ذلك العالم والجاهل، الغنى والفقير ، الكبير والصغير . وأحياناً كثيرة – وكما هو حادث اليوم – يفرض النظام قسراً على الإنسان ، فيعيش داخل إطاره وهو لا يدرى أنه سجين مذهب معين ! فهو لا يبحث قط عن تفسير للمفاهيم التى يحيا بها!!

وفى عالمنا الإسلامى اليوم ، يتعرض شبابنا لتضليل غاية فى الدهاء ، فنحن نعلم أن وراء انتشار فكرة ربط الإسلام باليسار أو اليمين عملاء يدركون طبيعة وفكر هذا الشعب الذى يرفض أى جديد ما لم يثبت أصحابه ويؤكد أتباعه توافق مبادئ الإسلام مع ما يَدْعُون إليه.

وهكذا اختلقت أوصاف جديدة للإسلام ، فسمعنا "باليسار الإسلامى" وقادته عمر بن الخطاب وأبو ذر الغفارى ، "واليمين الإسلامى" وقادته عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف!!

ثم ماذا؟!

إن ما يتردد الآن فى ساحة الفكر الإسلامى يمثل خطراً حقيقيًا على مستقبل هذا الدين . فذلك الذى يبحث فى مدى توافق الإسلام مع اليسار أو اليمين هو فى الواقع لا يفهم شيئا عن إسلامه ، وأى مصيبة تقع بنا أخطر من هذه؟!

لقد ظننت الأمر فى بدايته مجرد تهكم وسخرية حتى إذا ما تيقنت من جدية ما يردده شبابنا .. رأيت أن الحالة تستدعى التنبيه والتنوير حتى نحمى شبابنا من الوقوع فى شباك المضللين من أصحاب اليسار واليمين.

وأرجو أن أكون قد وفقت فى عرض المسألة.

وبالله التوفيق.

وائل عثمان

اليسار واليمين

قد يكون من المفيد أن نتفق أولاً على تعريف محدد لكلمتى اليسار واليمين.

وبادئ ذى بدء ، أقرر أن حديثنا سيقتصر بإذن الله على اليسار واليمين بمفهوميهما العقائدى والفلسفى... ولن نتطرق للمفاهيم السطحية التى شاعت بيننا هذه الأيام كوصف اليسار بالتقدمية واليمين بالرجعية.

ولنا أن نتساءل ... ما المقصود بالتقدمية والرجعية؟

تقدم ؟! ... نعم . لكن إلى أين ؟

إن احترام عقلية القارئ تحتم على الكاتب أن يفصح صراحة عن مفهوم التقدم الذى يقصده، وإلا أصبحت المسألة مجرد تلاعب بالألفاظ . وهو ما يحدث اليوم.

إننا لا ننتظر مثلاً أن تعلن مجموعة أنها تسعى لجر البشرية

إلى التأخر والشقاء ! فأى معنى إذن لهذه التسمية المضحكة التى يسمى بها البعض نفسه فيقول "أنا فكرى تقدمى" ؟!

أما ما يثير الضحك والدهشة فعلاً ، قول بعضهم من أن فكره لا يرتبط باليسار ولا اليمين، وإنما هو نابع من التراب وملتصق بالطين!! .

رأفة بنا أيها "الترابيون" فإن عقولنا لم ترتق بعد لهذا المستوى من الفهم ،لذى يعيننا على إدراك ما تقصدون!

وليستسمحنى القارئ العذر إذا ما مررت سريعاً على هذا التفكير "العبقرى" فلا أظن أن من بصدد دراسة اليسار واليمين – ومن قبلهما الإسلام – من الناحية الفكرية ، بعاجز عن إدراك أن الأرض لا تنبت إلا الأشجار والنباتات . أما الفكر فمجاله العقل . . أدام الله على شبابنا عقولهم!!

وحتى لا نتردى أكثر من ذلك فى متاهات الجهالة المضحكة نعود فنقول إن كلمة "اليسار" أطلقت فى وصف وتسمية حزب المعارضة فى برلمانات أوربا – خاصة فى فرنسا وبريطانيا – حيث كانت المعارضة تجلس إلى يسار قاعة المجلس. ثم قصد بها المجموعة

التى ترفض الأوضاع القائمة فى أوربا وتطالب بالتطوير وتحرير الإنسان من قبضة الرأسمالية المستغلة.

ولما كانت الشيوعية هى الدعوة الجديدة التى تبلورت على أساسها الأفكار الرافضة للنظام الرأسمالى ، فقد ارتبط الفكر الشيوعى بهذه التسمية وأصبح "اليسارى" هو الإنسان الذى يحمل الفكر الشيوعى وينادى بحكم طبقة البروليتاريا.

ومن ناحية أخرى أطلقت تسمية "اليمين" على المجموعة التى دافعت عن الوضع القائم – الرأسمالية – وحاربت الدعوة إلى التغيير الممثلة فى الشيوعية.

ثم اتسع التعريف ليشمل مجموعات أخرى تتفق فى إيمانها بفكرة واحدة وإن اختلفت فى أساليب تطبيقها.

وهكذا أصبح اليسار فى أوربا يعنى ، بالإضافة إلى الفكرالشيوعى ، الأفكار الاشتراكية، التى تنادى بالتغيير فى ظل الاحتفاظ بأساس الهيكل الرأسمالى للدولة.

وبالمثل يدرج تحت قائمة اليمين فى الدول الشيوعية المجموعات التى تنادى بتغيير وتطوير بعض المفاهيم الماركسية.

ونحن . . . ما لنا وما يحدث فى هذه البلاد أو تلك؟

هل كان نظامنا رأسماليًا أو شيوعيًا حتى نصنف الانتماء الفكرى عندنا على أساس رفض أو قبول هذا النظام أو ذاك؟

إن نظامنا لم يكن فى يوم ما إلا إسلامى . . ثم تخلينا عن إسلامنا فأصبحنا "لا شيء"!!

فإذا ما برز لنا اليوم من يقول "أنا يسارى" أفلا يحق لنا أن نسأله : ماهو القديم الذى ترفضه ، وما هو الجديد الذى تنادى به؟

كذلك نسأل اليمينى : ما هو النظام السائد الذى تقبله وتدافع عنه وترفض تغييره؟

المسألة ليست مجرد رفض أو قبول بقدر ما هى رفض ماذا وقبول ماذا؟

إننا نتناقش حول أوضاعنا فى المنطقة الإسلامية لا فى الجانب الغربى أو الشرقى من كرتنا الأرضية ، وهذا ما يدفعنا فى الواقع إلى دراسة الفكرة مجردة دون البحث فى جوانب تطبيقها لأنها لم تطبق أصلاً فى منطقتنا!

لذلك فإن اليسار لا يعنى فى دراستنا سوى الشيوعية واليمين لا يعنى سوى الرأسمالية.

وفى حالة رفض اليسار لهذا التعريف، وهو ما نتصوره، وتمسكه بأنه "الاتجاه إلى التغيير" فمن حقنا أن نستزيد علماً من أهله فنسألهم عن نوعية هذا التغيير الذى يستهدفونه.

هل هو تغيير السياسة الاشتراكية لثورتنا "المباركة"؟!

وهل يعنى هذا أنهم يرفضون المبادئ التى أرساها "الزعيم الخالد" والذى أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عنه وعنها!

أم لعلهم يقصدون تغيير طبيعة هذا الشعب المتعاطف مع الإسلام، ولا أقول المؤمن به، فما عاد شعبنا يعرف شيئاً عن دينه!!

نحن نرحب بإيضاح من أهل اليسار، وفى نفس الوقت نرفض الإجابات ذات الشعارات الخالية من أى تحديد علمى ومضمون عقائدى. أقول هذا، لأننى على يقين من أن الإجابة الجاهزة عندهم والتى طالما رددها ذيولهم ترديد الببغاء لما لا يفهمه، هى قولهم: إننا نسعى للتغيير من أجل "رفاهية الشعب". وكأن هناك من يسعى للتغيير من أجل شقاء الشعب!!

رفاهية الشعب لا يختلف عليه اثنان ، لكن كيف السبيل؟

..... هذا هو السؤال!

أما أصحاب اليمين فأمرهم لأعجب ! فهم لم يعلنوا قط عن نظامهم ، والمفروض أن يكون قائماً الآن ويرفضون تغييره.

هل تراهم يريدون الحفاظ على مبادئ "الزعيم الخالد" ومعارضة أية محاولة للمساس بمبادئه؟

أم أنهم يتخيلون أنفسهم من مواطنى الولايات المتحدة – فيتبنون الدعوة إلى الدفاع عن نظامها الرأسمالى غير المطبق عندنا أصلاً؟!

إنى والله لأتعجب من تصنيف الناس فى منطقتنا إلى يسار ويمين ، والمرء لا يدرى أى تغيير يسعى إليه اليسار ، وأى وضع يجاهد اليمين للحفاظ عليه[1]!

---

(١) من يظن أننا طبقنا النظام الرأسمالى فى مصر بعد انقلاب السادات على القوانين الاشتراكية « للزعيم الخالد » هو واهم وساذج، فإن النظام الحاكم لا يرتبط بأية مبادئ غير الاستبداد والفساد! « الطبعة الثانية ».

وليت الأمر يقف عند هذا الحد .. لهان واعتبرناه مجرد جهل وسخف!

ألم تسمع – عزيزى القارئ – عن كذب وافتراء الفريقين وادعائهما – استغلالاً لعاطفة الشعب الإسلامية – من أن هدفهم فى النهاية هو تطبيق الإسلام ؟ لقد أعلن اليسار أن مقصده بالتغيير هو تغيير المفاهيم الإسلامية البالية التى انحرفت بالإسلام عن مفهومه الصحيح.

وما هو هذا المفهوم الصحيح؟

الشيوعية ! أو ليكن فى هذه المرحلة .. الاشتراكية !

وينبرى أهل اليمين ليعلنوا أنهم يسعون إلى المحافظة على المفهوم الإسلامى الأصيل.

وما هو هذا المفهوم الأصيل؟

الاقتصاد الرأسمالى فى ظل حرية مطلقة.

هكذا؟

نعم . فإن الأمر قد تحول إلى تنافس بين اليسار واليمين للارتباط بالإسلام وتلوينه وفق أهوائهما.

لا يا سادة ! . . ليس الإسلام عروساً عانساً تنتظر من يخطو بها فى مسالك الحياة .

الإسلام يعنى الإسلام .

واليسار يعنى الشيوعية .

واليمين يعنى الرأسمالية .

ولنا عودة لمزيد من الإيضاح مع نهاية الكتاب بإذن لله .

* * *

obeikan.com

الفكر والعبث

حينما نتحدث عن الفكر ، علينا أن نحترم عقولنا ونرتقى إلى مستوى الإدراك الإنسانى الذى يفرق ما بين الجد والهزل ، الحق والباطل ، الخطأ والصواب .... الفكر والعبث!

إن من مهازل حياتنا الثقافية اليوم ، إطلاق صفة "الفكر" على بعض التجارب التطبيقية لقوانين عشوائية ارتجالية تقود البلاد إلى نكسات وهزائم متتالية وخراب شامل فى اقتصادها وانحلال وضيع فى أخلاقياتها.

وأكثر سخفاً من ذلك مايسمى بالتطبيق المحلى لفكر مستورد من بيئة تختلف اختلافاً جذريًّا فى خصائصها وظروفها التاريخية وتصورها للحياة عن بيئتنا.

وتمتد المهزلة لتشمل هذا الصنف من الحكام فى منطقتنا العربية الذين مكنتهم مواقعهم العسكرية من احتلال كرسى السلطة ، فإذ بهم يتحولون فجأة إلى مفكرين وزعماء وأصحاب نظريات!

غير أن أكثر ما يزعج النفس ، وسط هذه الدوامة من الجهالة والمهازل، افتراء البعض فى نسب مقولاتهم وواقعهم للإسلام حتى

أن جمهرة الناس أصبحت تصف بعض الدول بأنها إسلامية لمجرد أنها تقطع يد السارق!

ولا شك أن هذا الجهل مرجعه أساساً لأدعياء الفكر من كتابنا حيث لم تعد الأصالة الفكرية هي المعول للكتابة والنشر، وأصبح باب الصحافة مفتوحا لأهل الثقة لا أهل العلم.

وفى غياب أصحاب الأقلام الأمينة فكريًا أصبحت الآذان لا تسمع إلا نفايات الآراء والأعين لا تقرأ إلا تفاهات الكلام.

ووسط هذا الخضم الهائل من الجهل والنفاق، طفت أقلام لا تستحق أن تعلو قيد أنملة فوق مستوى القاع، وتبوأت المراكز القيادية وأطلت على الجماهير ببريق ثقافى فكرى يخدع.

يخدع ؟...نعم! لكن ما زال فى عصرنا من يفقهون ويدركون! ما علينا !... ما علينا من هؤلاء أصحاب الشعارات والعبارات الطنانة.

أصحاب ... التقدمية والرجعية والإمبريالية والاتحادية والوطنية والناصرية .. إلى آخر كل "إية" !!

وإنى لعازم بإذن الله على احترام عقلية القارئ، فلا أنساق فى حديثى لمثل هذه السفاسف. ولسوف يقتصر حديثنا عن الفكر اليسارى الشيوعى والفكر اليمينى الرأسمالى لنرى إن كان من الممكن التوفيق بين أحدهما – أو كليهما– وبين الإسلام!

اليسـار

مدخل

ما هى الماركسية ؟

إذا طرحت هذا التساؤل على شاب يسارى ، لأجابك على الفور – وبصوت يطغى فيه الصراخ والانفعال على التعقل وحسن البيان :

الماركسية هى النظام الذى يحرر الإنسان من قبضة رأس المال .

هى محاربة الإقطاع والاستغلال .

هى النظام الذى يقوم على أسس علمية ثابتة .

هى التقدم والرقى والكمال . . . .

هذه إجابات كثيراً ما تلقيتها وأنا أتحاور مع الشباب اليسارى فى الجامعة .

وعندما شرعت فى كتابة هذا الكتاب ، سألت نفسى :

من أين أبدأ ؟ وأنَّى لى أن أتحقق من صواب الفلسفة وكمال النظام الذى يقوم عليها؟

هل أبحث فى قوانينها الاقتصادية أم السياسية ... أم الاجتماعية؟

وعدت أتساءل مرة أخرى : كيف توصل ماركس إلى هذه القوانين ، وهل قوانينه هذه مجرد معادلات صاغها دون أن يكون لها أى أساس علمى ؟ وهل كان ماركس من هذا الصنف من الزعماء الذين يستنبطون قوانين عشوائية سطحية تعالج مشاكل وقتية بدون دراسة أو تمحيص؟

بدأت بهذا السؤال الأخير ولم أشأ أن أظلم الرجل ! فإن مفكراً صاغ نظرية متكاملة لا يمكن أن يكون قد توصل إليها إلا إذا كان يؤمن بتصور شامل عن الحياة ، ومن ثَمَّ سن القوانين التى تحكم الحياة بما يتمشى وتصوره لها .

ثم عدت إلى السؤال السابق له ، حيث تذكرت أن الماركسية قد سميت بـ "الاشتراكية العلمية" إذن فقوانين هذا الرجل لها أساس علمى يحكمها وتستند إليه .

وهنا أمسكت بطرف الخيط!

فالبداية يجب أن تكون فى دراسة الأساس العلمى لهذه الفلسفة.

إن القوانين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ما هى إلا محطات على الطريق... هذه المحطات لن ندركها إلا إذا اهتدينا لبداية هذا الطريق.

هكذا يكون المنهج العلمى الصحيح فى بحثنا عن الماركسية، بل وكافة الأنظمة الأخرى.

وللأسف تغيب عن معظم شبابنا هذه الحقيقة فينهجون فى بحثهم منهجاً غير علمى وذلك بالبدء فى دراسة القوانين قبل دراسة الفلسفة التى تحكم هذه القوانين.

وإن ما نقرأه اليوم من مناقشات بين اليسار ومعارضيه ليمثل نموذجاً سطحيًا تافهاً لما قد تصل إليه المناقشات فى ظل الجهل والانحطاط الفكرى.

إننا نقرأ عن التأميم، والملكية والمصادرة، والقطاع العام والخاص، والانفتاح والانغلاق....

وذلك كله فى غياب النظرة الشاملة للنظام الذى يدعو إليه كل فريق.

وسوف تستمر المناقشات ... ولن نصل إلى شيء ! لأننا فى الواقع نتحدث عن تفاصيل بناء لم نتفق بعد على وضع الأساس له.

وإذا كانت الشعارات من نوع :- التقدمية - الرجعية - طبقة العمال - المد الثورى والجذر الثورى - المكاسب الاشتراكية - تحالف قوى الشعب ... إذا كانت تصلح لمخاطبة العامة ، فإن الوضع يختلف - أو المفروض أن يختلف - عندما تتجالس مجموعة مثقفة - أو المفروض أنها مثقفة - لمناقشة النظام الأمثل لسعادة البشرية.

الماركسية هى "الاشتراكية العلمية"

إذن ليكن العلم هو الحكم بيننا.

ولا أخال أن عاقلاً يرضى لنفسه الاستمرار فى مناقشة قوانين نظام يثبت العلم خطأ الفلسفة التى يقوم عليها .. ولا أظن أن عاقلاً يقبل التمسك بقوانين تصدر عن تصور للحياة لا ترتاح له نفسه ولا تطمئن إليه جوانحه.

لنتفق أولاً على هذا المفهوم .. قبل أن نبدأ رحلتنا مع الماركسية.

"المادية الجدلية"

أساس البحث فى الفلسفة الماركسية هو دراسة "المادية الجدلية" وتليها دراسة "المادية التاريخية" التى توسع ميدان مبادئ المادية الجدلية فتشمل المجتمع . أى أن " المادية الجدلية التاريخية" هى الأساس النظرى للاشتراكية العلمية ، أو الشيوعية.

وقد اختصر ستالين كل ذلك فكتب يقول :-

"الماركسية هى العلم الذى يقوم بدراسة قوانين تطور الطبيعة والمجتمع ، وهى العلم الذى يدرس ثورة الطبقات المضطهدة المستغلة ، كما أنها العلم الذى يصف لنا انتصار الاشتراكية فى جميع البلدان، وأخيراً هى العلم الذى يعلمنا بناء المجتمع الشيوعى"

ولقد قام ماركس بدراسة المادة واستنتج القوانين التى تحكم حركتها ثم طبقها على الطبيعة .. وأخيراً على المجتمع باعتبار أن الإنسان ظاهرة مادية.

إذن فالمادة هى الأساس عند ماركس . . هى الخالقة والمبدعة وقوانينها هى التى تحكم علاقات البشر بعضهم ببعض .

يقول ماركس فى رسالة عن الفيلسوف "فيور باخ" : "إن العيب الأكبر فى مذاهب المادية الموجودة – ومنها مادية فيورباخ – أن الموضوع والواقع والحس إنما تفهم من أنها موضوعات للتأمل ، ولا تفهم على أنها عامل إنسانى يحس ويتصرف، وأنها هى صاحبة الفاعلية"

لكن . ما هى "المادة" يا "سيد" ماركس؟

لقد عرفت المادة قديماً ، وحتى القرن التاسع عشر بأنها "كل ما تقع عليه الحواس" ثم أعيد صياغة التعريف بعد الاكتشافات العلمية فى مجال الذرة فأصبحت تعرف بأنها "الوجود لموضوعى خارج الذهن" ، فى حين كان ماركس يرى أن المادة مفسرة بالبداهة عن كل تفسير وكل تعبير . . "هذه هى المادة تحت يديك وتحت قدميك وأمام عينيك ، فما حاجتها إلى التفسير والتعبير" ؟

هذه النظرة الساذجة هى نظرة "التفسير المادى" فى تفسير الكون والتاريخ وتفسير كل محتاج إلى تفسير إلا المادة فإنه لم يحاول قط أن يفسرها .

والآن ماذا يقول العلم الحديث فى شأن المادة؟.

"المادة مركبة من بروتونات وإلكترونات ، أى شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء . فاللوح هو فى الحقيقة مكان فارغ مشتمل على شحنات كهربية مبعثرة هنا وهناك" .. ادنجتون.

"المادة صورة من الطاقة فحسب" ... أوستوالد.

"المادة مجرد ضرب خاص من الأضراب الموجى" .. هالدين.

وجاء أينشتين ليثبت بقانونه "الطاقة = الكتلة * مربع سرعة الضوء" أن مفهوم الكتلة فى طريقه إلى فقدان امتيازه الوحيد باعتباره المقدار الواحد الدائم فى النهاية.

هذه المادة التى يرى ماركس أنها "مفسرة بالبداهة" يعجز العلم الحديث عن تحديدها . بل إن الإنسان خرج بالمادة إلى دائرة أوسع منها تعدتها إلى عمليات رياضية فكرية استطاع الإنسان أن يستوعبها . فكيف ندعى أن المادة هى الأصل؟

إن سذاجة نظرة ماركس للمادة تتضح فى مفهومه على أنها كل ما هو محسوس ، ذلك أنك قد تحس بالمادة فعلاً إذا ما ضربت بيدك حائطاً من الطوب مثلاً لكنك لن تحس بها إذا ما تضاعفت

قوتك مئات الأضعاف لأن يدك فى هذه الحالة سوف تجرى دون الحائط كما تجرى فى هذا الفضاء.

فإذا كان ماركس ينكر علينا إيماننا بالغيب ، فإنه فى الواقع قد أقام فلسفته على حقائق غيبية بعد أن أثبت العلم الحديث أن المادة هى صورة من صور الطاقة . فهى ليست إلا طاقة مركزة . وأن مكوناتها من إلكترون وبرتون ونيترون – لا يمكننا أن نحسها ولكن نستدل عليها بآثارها فقط.

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه "الشيوعية والإنسانية" :

"... أما اليوم فكل سامع من الملمين بأطراف الحديث عن المادة يعلم أن مشكلة الروح فى أعمق أعماقها لم تواجه الذهن بعقدة فى تفسيرها كالعقدة التى تواجهه عند تفسير المادة"

وهكذا نصطدم فى بداية بحثنا ، بنفى العلم ومخالفته للأساس "العلمى" للاشتراكية "العلمية" !

ومع هذا دعونا نمضى معهم لنرى ماذا يقولون فى ماديتهم الجدلية والتاريخية!!

* * *

"المادية الجدلية"

تقوم على أربعة قوانين هى:

* الترابط الشامل
* التحول الشامل
* التحول النوعى
* نضال الأضداد

وهم يطبقون هذه القوانين جميعها على الإنسان باعتباره ظاهرة مادية . لذلك فقد يكون من المهم ، بل من الضرورى ، أن نراجع معاً ولو بنظرة سريعة أهم ما تنص عليه هذه القوانين لأن فى ذلك ما يساعدنا كثيراً فى الوصول إلى إجابة محددة قاطعة عن إمكانية الربط أو التوفيق بين الإسلام والماركسية.

أولاً: قانون الترابط

والمقصود به هو الترابط بين سائر الظواهر الطبيعية.

obeikan.com

وهم حينما يطبقون هذا القانون على المجتمع يهدفون إلى تأكيد أهمية العمل الصغير فى خدمة تحقيق الهدف لأكبر ... تمكين حكم البروليتاريا.

ولعلنا نلاحظ فى حياتنا اليومية تطبيقهم العملى لهذا القانون ، فهم يسعون دائماً للسيطرة على مراكز الأنشطة المختلفة من فنية واجتماعية ورياضية إلى جانب المؤسسات النقابية والشعبية.

كما أن لهذا القانون تطبيق عملى فى خطة عمل (تكتيك) الحركة الشيوعية ، حيث تهتم دائماً "بما هو ممكن وما هو غير ممكن".

ومن قولهم فى هذا "أننا نتخذ قراراً معيناً فى ظرف معين حتى إذا ما تغيرت الظروف اتخذنا قراراً مختلفاً عن الآخر الذى اتخذناه أولاً . فنحن نتراجع إذا لم تعد ظروف النجاح كاملة . كما نسير رأساً إلى القتال إذا أملنا النصر بهذا الهجوم"

ولعل هذا ما يفسر لنا عدم تعرض الماركسيين للإسلام صراحة فى وقتنا الحاضر ، فالظروف – المتمثلة فى تعلق هذا

الشعب بإسلامه ، ولو من الناحية الشكلية – تحول دون الكشف عن القناع الإلحادى السافر للماركسية ونحن بالطبع لا نعترض على هذا القانون، فالترابط حقيقة بديهية أدركها الإنسان منذ الأزل . لكن النظرة المادية الضيقة للفكر الماركسى تحصر مفهوم الترابط فى الظواهر المادية فقط، فى حين أن تعميم هذا القانون ليشمل الترابط بين المادة والروح . . الإنسان والكون من حوله ، يعطى التصور الإسلامى الصحيح عن الحياة.

إن الترابط لا ينحصر ، فى الواقع ، فى هذا الحيز المادى الضيق، فالطبيعة الإنسانية تستشعره فى حركة النواميس التى تخضع لها الحياة كلها. فالإنسان مترابط مع مختلف ظواهر الكون ، والكل فى ترابطه يستقر فى مقام العبودية لله.

إن تعميم قانون الترابط ليكون شاملاً – بهذا المفهوم الإسلامى– يحيل العلاقة بين الإنسان والطبيعة إلى علاقة حب وتفاهم ، لا بغض وتنافر كما تصورها الفلسفة الماركسية.

ثانياً : قانون التحول الشامل

ويعنى أن الواقع المادى المترابط هو فى ذاته متحرك ومتغير .

يقول إنجلز : "تشمل الحركة بالمعنى العام ، كشكل من أشكال وجود المادة وصفة من صفاتها ، جميع التغيرات وما يحدث فى الكون من مجرد تغيير المكان حتى للتفكير نفسه"

وتؤكد المادية الجدلية على أن الكون يتوالد باستمرار ويحمل فى أحشائه إمكانياته الخاصة فى الحركة والتحول وهو لذلك ليس بحاجة لمحرك أول.

ولا شك أن هذا التفسير يتفق تماماً وفكرة إنكار وجود الخالق ثم إنه يعكس نظرة الماركسية للمجتمع حيث لا تعترف بأية مبادئ ثابتة خالدة إنسانية سامية.

كذلك فإن هذا القانون يعتمد اعتماداً كليًّا على نظرية التطور لداروين التى فندها العلم الحديث.

يقول إنجلز " ... أما المادة الحية فهى تخضع أيضاً لعملية تطور مستمرة .. فلقد تكونت ابتداءً من أول مراحل الحياة الفقيرة ، أنواع النباتات والحيوان . ولذا لم يعد بالإمكان الاعتقاد بالخرافة التى نشرها الدين منذ مئات السنين بأن الله خلق الأنواع مرة واحدة فهى لا تتغير".

فى الواقع أنه يهمنا جداً أن نتوقف هنا لنناقش نظرية التطور لأنها تعتبر سندهم فى تأكيد حتمية تطور المجتمع البشرى من نظام الرق إلى الإقطاع ثم الرأسمالية وأخيراً الاشتراكية التى تنتهى بالشيوعية .

فالمنهج الماركسى ، وكما أوضحنا من قبل ، يقوم على تفسير الظاهرة تفسيراً علمياً يطبقه على الطبيعة ثم يصوغه فى قوانين تحكم الحياة البشرية .

لذلك فإن تفنيدنا للأساس العلمى لأى قانون من قوانين المادية الجدلية ، يدفعنا تلقائياً إلى التوقف عن استكمال مناقشة صحة أو خطأ تطبيق هذا القانون على الإنسان ، فنحن إذا ما اتفقنا على خطأ الأساس ، يكون من العبث والسفه أن نناقش ما يتفرع عنه .

وبالنسبة لنظرية التطور (مذهب النشوء والارتقاء) نجد أن العلم الحديث قد أنكرها تماماً . وإذا كنا نستبيح للماركسيين الأوائل الاستناد إلى نظرية علمية كانت تعتبر صحيحة فى عهدهم ، فإننا لا نفهم سبباً لتمسك ماركسى النصف الثانى من

القرن العشرين بخرافة أبطلها العلم إلا أن يكون دافعهم هو التعصب لشعارات يلبسونها لبوس العلم وهى أبعد ما تكون عنه! وذلك لخداع قلة من المتعلمين يبهرهم دأب الشيوعيين على نسب أفكارهم للعلم.

العلم ! تلك الكلمة التى يخضع لها الإنسان ولا يملك إلا أن يحترمها وينزلها منزل الصدق.

ولكن أى علم ؟

فى رسالة [1] قيمة للسيدة منيرة على الغاياتى تكشف المؤلفة زيف هذه النظرية وتعارضها مع العلم الحديث . ومن رسالتها: "يقول سير "إرثركيث" إن نظرية النشوء لا زالت حتى الآن بدون براهين ، وستظل كذلك والسبب الوحيد فى أننا نؤمن بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا أمر غير وارد على الإطلاق".

ويقول البروفيسور "واطسون" من جامعة لندن : "إن علماء الحيوان يؤمنون بالنشوء لا كنتيجة للملاحظة ، أو الاختبار،

---

(١) « مذهب النشوء والارتقاء فى مواجهة الدين» .

أو الاستدلال المنطقى ، ولكن لأن فكرة الخلق المباشر فكرة بعيدة عن التصور" .

ويضيف الجيولوجى "سير . ج . وادسون" : " هذا الاعتقاد هو نوع من الإيمان الأعمى الممتزج بالسذاجة والخرافة "

كما تثبت المؤلفة أن فكرة النشوء ترجع إلى الأزمان الغابرة، فهى ليست دعوى تقدمية وإنما الإيمان بها هو تقهقر رجعى إلى أزمان غابرة ، فقد أعلن أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ قبل الميلاد) أن الإنسان هو ذروة عملية ارتقاء طويلة ومستمرة.

والتسلسل فى مناقشة بنود هذه النظرية يثبت لنا خطأها وسذاجتها العقيمة:

١ – يتصور أكثر النشوئيين جرأة أن الجنين يمر بكل مراحل النشوء والارتقاء ، أى من الخلية الواحدة إلى الإنسان . وهم يفترضون أن الشهور القلائل التى تنقضى بين الحمل والولادة تغطى ملايين الأعوام من الوجود والتطور.

وطبيعى أن أول سؤال يقفز إلى الذهن هنا : "إذا كان من الممكن أن يحدث هذا فى خلال تسعة أشهر ، فلماذا استغرق حدوثه ملايين السنين من قبل؟!

لقد اعترف "أرثر كيث" بـ "إننا كنا نتوقع أن يكرر الجنين الصفات المميزة لأسلافه من أدنى أشكال الحيوان إلى أعلاها ، ولكن بعد دراسة الجنين فى كل أحوال ومراحل تكوينه خابت آمالنا ، فالجنين لم يكن قرداً فى أى من مراحله" .

٢ – يعتقد النشوئيون أن بعض أعضاء الإنسان تمثل بقايا أعضاء كانت ضرورية لأسلافه ، ولكنها مع الزمن أصبحت عديمة الضرورة بالنسبة له .

ويرد البروفيسور "أ.س جودريتش" من جامعة أكسفورد : "من الحماقة القول بأن أى جزء من جسم الإنسان لا فائدة له" !

٣ – يستنتج النشوئيون من مقارنة الهياكل العظمية والعضلات والأعصاب فى كل الأنواع أنها تنتمى جميعاً إلى أصل واحد هو الحيوان وحيد الخلية .

ونحن لا نستطيع أن ننفى التشابه بين بعض الأشكال والتكوينات ولكن هذا التشابه فرضه الخالق سبحانه وتعالى بما أراده لبعض مخلوقاته مع تشابه فى طرق المعيشة والغذاء .

وقد أعلن العالم الجيولوجى "أوستد كلارك" أنه لا يوجد

علاقة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيًا من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيره . إن كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة ومتميزة ، ولقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة ، وفى نفس الشكل الذى نراه عليه الآن .

"ألا من عودة إلى قرآننا الكريم!" .

٤ – يعتقد النشوئيون فى "الحلقة المفقودة" ويقول "أنتونى ستاند" فى كتابه "العالم بقرة مقدسة" : إنه لأقرب من الحقيقة أن نقول إن جزءاً كبيراً من السلسلة مفقود وليس مجرد حلقة واحدة . بل إننا لنشك فى وجود السلسلة ذاتها . إننا فى حاجة إلى ملايين الحلقات لنربط بين الإنسان وبين أى نوع من القرود" .

ويؤكد البروفيسور "فيرشو" أن "فكرة القرد الإنسانى هى محض خرافة"!

٥ – يحاول النشوئى أن يخلق لدى الإنسان انطباعاً بأن الجيولوجيا تؤيد نظرية النشوء والارتقاء ، بيد أن الحقيقة هى على عكس ذلك . حتى أن داروين نفسه يقول "إن

الجيولوجيا لا ترينا دليلاً على عملية التدرج ، وهذا هو الاعتراض الرئيسى الذى يواجهه كتاب "أصل الأنواع"

٦ – النشوئى لا يستطيع أن يثبت نقطة البداية . والأكثر من ذلك أنه لا يستطيع – إذا افترضنا جدلا نجاحه فى إثباتها – أن يشرح عملية التطور من الخلية الأولى إلى الإنسان .

وقد افترض "لا مارك" "أن المخلوقات تكتسب صفاتها بتأثير البيئة التى تعيش فيها وأن هذه الصفات قد انتقلت عبر الزمن إلى سلالتها وأن مرور فترة كافية من الزمن قد أتاح خلق أنواع جديدة" .

غير أن علم الأجنة أثبت العكس ، حتى أن داروين نفسه علق على قول لا مارك قائلاً "فلتحفظنى السماء من جنون لا مارك"

لذلك عمد داروين إلى إثبات فرضية "بقاء الأقوى" أى "الاختيار الطبيعى" غير أن "هوجو ديفرز" يعلن "أن الاختيار الطبيعى يمكن أن يفسر بقاء الأقوى ولكنه لا يستطيع تفسير وجوده أصلاً" . (انتهى) .

وإذا كان المجال لا يتسع هنا لمزيد من المناقشة التحليلية الواسعة لنظرية التطور ، فإننا نختتم هذا الجزء بعبارة العالم الكبير "أينشتين" (*) : "لا أستطيع أن أصدق أن الكون قد نتج عن رمية زهر" !

مما سبق يتبين لنا أن الماركسية تقوم فى دعائمها على أساس علمى خاطئ وبالتالى لا يحق لها أن تفرض قانون "التحول الشامل" كتفسير لحياة الإنسان وحتمية تطوره.

ثالثاً : قانون التحول النوعى

يرجع هذا القانون كل التحولات النوعية – أى التحول من نوع إلى آخر – إلى تراكم التحولات الكمية – أى ازدياد الكمية أو نقصانها – فكل تحول نوعى يحتاج إلى تحولات كمية ضرورية لحدوث هذا التحول.

ولذلك فهم يفسرون حتمية الحل الاشتراكى – ومن بعده الشيوعى – على أنه تحول نوعى سيتم حتماً نتيجة تجمع

(*) نحن نستدل هنا بأقوال علماء الغرب من أجل هواة التقليد ، وإلا فإن فى قرآننا الكريم وتراثنا العلمى ما يغنى.

التحولات الكمية التى تحدث فى المجتمع الرأسمالى . والثورة هى قمة التحول الكيفى وهى نهاية النضال .

يقول ستالين "يعلمنا المنهج الجدلى أن الحركة تتخذ صورتين : صورة تطورية وصورة ثورية ، وتكون الحركة تطورية حين تستمر العناصر التقدمية فى عملها اليومى بصورة تلقائية فتحدث فى النظام القديم بعض التحولات الكمية الطفيفة . كما تكون الحركة ثورية حين تتحد هذه العناصر تحت لواء فكرة واحدة فتنطلق ضد العدو لتقتلع النظام القديم من جذوره وتحدث فى الحياة تحولات كيفية كما تقيم نظاماً جديداً محل النظام القديم ، وهكذا يمهد التطور للثورة بينما تقوم الثورة بإتمام هذا التطور كما تساعده فى عمله المقبل" .

ولعل الغافلون يجدون فى هذا الكلام ما ينبههم إلى خطورة الحركة الماركسية التى يتسلل أعضاؤها تدريجيًّا وببطئ داخل المؤسسات والأجهزة المختلفة ولا نفطن نحن لما يدبرونه ، حيث قد ينتهى الأمر لاندلاع ثورتهم ونفاجأ بهم وقد سيطروا على كافة الأنشطة (*)!

(*) وهو ما يحدث فى معظم مؤسساتنا الثقافية الآن . وللأسف ينخدع الشباب بشعاراتهم البراقة غير مدركين لما ورائها . والشباب معذور =

ونتيجة لهذا القانون فإن الماركسية ترفض مبدأ تحقيق الإصلاحات الاجتماعية بدون ثورة . وتؤكد على أن التغيير لن يتم إلا بثورة – حمراء بالطبع !– تتوج النضال الكمى السابق لها .

وفى هذا يقول "ستالين" "يجب أن نكون ، كى لا نخطئ فى سياستنا "ثوريين لا إصلاحيين"

هذا ما يعتقده الماركسيون ، وهم يعيشون على أوهام ما يعتقدون!

وإذا كانت دعوتهم تجد اليوم بعض الصدى فى صفوف قلة من الشباب ، فما ذلك إلا لغفلة من المسلمين وابتعاد عن أصول الدين الإسلامى . ويوم تقوى الدعوة الإسلامية ، وتزداد معرفة الناس بالحقائق العلمية التى تتعارض تماماً مع ادعاءات الاشتراكية العلمية ، سوف يكتشف المبهورون بالماركسية زيف الحتمية التى

= لأن البديل الذى يعطى الحرية الحقيقية للإنسان تحاربه الدولة فهى قد ترضى بالتواجد الشيوعى رغم ما بينها وبينه من عداء لكن لا ولن تسمح أبدا للفكر الإسلامى الصحيح بالانتشار لأنها تعلم أنه المارد الذى إن انطلق سيقتلع كل بؤر حزب الشيطان .

يؤكدها قانونهم هذا . ذلك أن التحول النوعى لن يتجه يوماً بالبشرية إلى التحول من آدمية وإنسانية الإنسان – كما قررها الخالق فى نظامه الإسلامى – إلى مادية الإنسان وحيونيته كما يقرر ماركس فى نظامه الشيوعى .

رابعاً : قانون نضال الأضداد (قانون التناقض)

وهو أهم قوانين الماركسية ، وبدونه تفقد مقومات استمرارها ونجاحها فى تقديم تفسير علمى صحيح لمعنى الحياة ، وبالتالى تبطل أهم حجج دعوتها للصراع وسيطرة طبقة البروليتاريا .

لذلك فإن الماركسيين يرون أن "العجز عن فهم هذا القانون يصيب الاشتراكية فى الصميم" .

يقول "لينين" : " إن المعنى الدقيق للجدلية هو دراسة التناقضات داخل ذات جوهر الأشياء" ويقول أيضاً "النمو هو نضال الأضداد"

وترجع أهمية هذا القانون إلى تفسيره للقوانين السابقة ، فقد علمنا حتى الآن أن هناك واقعاً ماديًّا يتحرك حركة شاملة

مترابطة ، وهو فى حركته يتغير ويتحول من صيغة إلى أخرى . والآن يأتى قانون "نضال الأضداد" أو "التناقض" لكى يفسر لنا سبب هذه الحركة.

واضح من عنوان القانون أنه يفسر حركة المادة على أنها ذاتية تعتمد على الصراع بين المتناقضات داخلها وهكذا فإن عملية التطور والتحول والتغيير تتم نتيجة للنضال بين هذه الأضداد.

يقول "ماوتسى تونج" :" .... فالمتناقضات الكامنة فى الأشياء والظواهر هى السبب الرئيسى لنموها بينما صلة الشىء أو الظاهرة المتبادلة مع الأشياء أو الظواهر الأخرى وتأثيرها عليها إنما هى أسباب ثانوية" .

وقد اعتمد ماركس فى إثباته لقانون التناقض على تفسيره للمادة . ذلك التفسير الذى فندته وكذبته الاكتشافات العلمية فى القرن العشرين (وسوف نتناول هذا الجانب بعد قليل بإذن الله) .

لكن يهمنا الآن أن نشير إلى أن ماركس ذهب بعد ذلك

إلى تطبيق هذا القانون على حركة تطور المجتمعات البشرية فيما سمى بصراع الطبقات ، فأوضح أن أى مجتمع جديد أسمى من سابقه . وهكذا يرى ماركس أن التناقض بين الملاَّك والفلاحين فى المجتمع الإقطاعى قد أنشأ الرأسمالية الصناعية التى تحمل فى طياتها "الشىء وضده" أى "أصحاب المال والعمال" ونتيجة لتطبيق قانون "نضال الأضداد" فإن الصراع سوف ينتهى بينهما بسيادة طبقة العمال واستقرار المجتمع الاشتراكى الجديد .

ومن حقنا أن نتساءل : أما لهذا التناقض من نهاية ؟ .

إن الإيمان بمبدأ "نضال الأضداد" يفرض علينا إجابة منطقية واحدة ، هى أن التناقض مستمر ولا محالة إلى ما لا نهاية ، فما السبب الذى يدعوه للتوقف إلا إذا كان القانون نفسه غير صحيح؟ .

وهكذا يتضح لنا مدى ضعف وخداع قوانين المادية الجدلية الماركسية التى تؤكد على أن نهاية هذا التناقض سوف تتحقق فى المجتمع الشيوعى .

يقول "ستالين" : "إن انتقال الاشتراكية التدريجى إلى

الشيوعية لا يمكن إلا بعد حل التناقض الكائن فى المجتمع الاشتراكى (ولا ندرى لماذا لا يؤدى هذا التناقض إلى ظهور مجتمع آخر غير المجتمع الشيوعى المرتقب !) ومع ذلك لا تتطور التعارضات فى المجتمع الاشتراكى إلى ضروب من النزاع والتناقض لأن مصالح أعضاء هذا المجتمع مترابط بعضها ببعض ، ولأن هذا المجتمع يدير أموره حزب مسلح بدون نزاع أو أزمة . كما أن هذه التعارضات مفيدة لأنها تعين المجتمع على التقدم" .

أى أن التناقض فى المجتمع الرأسمالى يحمل أسباب تخلف وفساد هذا المجتمع . أما نفس هذا التناقض فى المجتمع الاشتراكى فإنه يحمل مقومات تقدم هذا المجتمع!!

هل هذا الخداع فى حاجة إلى تعليق؟!

إنه التضليل واللعب بالألفاظ والاستناد إلى حتمية لا دليل على صحتها . . هذه سمة كل ماركسى فى كل زمان ومكان!

إن كثيرين يقعون أسرى هذا التضليل فيصيرون أتباعاً للشيوعية على أساس أنها المرحلة النهائية فى سلسلة الصراعات بين الأضداد التى تنتهى كل مرحلة منها بانتصار الأفضل . . وهكذا يصبح المجتمع الشيوعى هو أسمى المجتمعات!!

هذا المجتمع الشيوعى لم يتحقق بعد ، رغم مرور ما يقرب من قرن من الزمان على دعوة ماركس!

ولومات "محمد" عليه أفضل الصلاة والسلام قبل أن يقيم المجتمع الإسلامى الذى حدد ملامحه لما تمسك أحد بالإسلام بعد مماته.

لكن على الشيوعيين أن يناضلوا من أجل إقامة هذا المجتمع الخيالى.

مجتمع يمتلك فيه الفرد كل شىء .. ويقوم الإنسان الواحد فيه بمختلف الأعمال التى يتقاسمها اليوم أفراد محتلفون.

مجتمع . الفرد فيه هو المجموع .. والمجموع هو الفرد!

مجتمع . تتساوى فيه القدرات فيؤدى أى إنسان أى عمل!

مجتمع بلا دولة . الحاكم هو المحكوم ، والمحكوم هو الحاكم!!

ما هذا الدجل ؟

نعم .. ما هذا الدجل؟

وأى قوانين علمية منطقية وعقلية يستند إليها أصحاب هذه الدعوة؟

وأى مجتمع هذا الذى تتنازعه قوى الشر والصراع والتنافر ، بدلاً من الحب والتسامى والصفاء بين سائر أفراده؟

نعود إلى ما ذكرناه آنفاً من اعتماد ماركس على الحقائق العلمية فى عصره لإثبات قانون التناقض ومدى تطبيقه على الجنس البشرى.

لقد اعتمد ماركس – ومعه إنجلز ومن قبلهما هيجل – على الاعتقاد بأن الذرَّة هى وحدة الكون كله ، وأن الطبيعة مكونه من عناصر شتى (٩٢ عنصراً) تختلف باختلاف عدد ذراتها . وعلى هذا الأساس العلمى – الصحيح فى ذلك الوقت – فسر ماركس حركة الطبيعة على أساس تصور تناقض فى داخلها بين عناصرها المختلفة نتيجة لاختلاف تكوينها .

وإذا كانت الماركسية قد فسرت حركة المادة على أساس هذا التناقض ، فإنها قد عجزت تماماً عن تفسير نشأة "الذرَّة الأولى" التى بدء منها الصراع . والواقع أن هذا العجز يصيب الفلسفة الماركسية فى مقتل ، ويدفع أى إنسان عاقل إلى عدم الاستمرار

فى تتبع تفسيرهم لتطور حركة قد عجزوا عن تفسير نشأتها وبدايتها!

ونتيجة بهذا الاعتقاد العلمى الخاطئ لدى الماركسيين ، فإنهم نظروا إلى الظاهرة الواحدة الممتدة على أنها تمثل طرفى نقيض، فالحار نقيض البارد والأسود نقيض الأبيض . والسائل نقيض الجامد . بل إن إنجلز ذهب فى كتابه "جدل الطبيعة" إلى الإعتقاد بوجود أشعة ضوء سوداء فى مقابل أشعة الضوء البيضاء!

وعندما اطمأنوا إلى هذا التفسير العلمى ، راحوا يطبقونه على الإنسان ؛ وأقاموا عليه قوانينهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فيما سمى "بالاشتراكية العلمية" .

واليوم نتساءل : هل ما زال فى عصرنا من يؤمن بهذا التفسير العلمى؟

لقد أثبت العلم الحديث أن الذرَّة ليست هى وحدة الكون، وذلك بعد اكتشاف مكوناتها التى تنقسم إلى نواة تتكون من بروتونات ونيترونات وأجسام أخرى ، ويحيط بها عدد من الإلكترونات .

أما الإلكترون فهو ذو شحنة سالبة ، والبروتون ذو شحنة موجبة والنيترون متعادل الشحنة .

ويرجع اختلاف المواد إلى عدد وترتيب الإلكترونات فى ذرَّاتها .

ولم يعد أمر المادة ينطوى على أى نوع من التناقض، فقد أثبت العلم أن عدد الإلكترونات السالبة فى الذرَّة الواحدة مساوٍ لعدد البروتونات ، وهما لا يتصارعان داخل الذرَّة ، وذلك حسب قانون "كولومب" الذى ينص على أن الشحنات الكهربية لا تتنافر، ولا تتجاذب عند مسافة تساوى جزء من ثلاثين مليون جزء من السنتيمتر وهو ما يعادل ١ / ٨ قطر أكبر ذرَّة . وبذلك ثبت أنه ليس داخل الذرَّة جذب أو تنافر من هذا التناقض.

ومن الثابت علميًّا اليوم أيضاً أن المادة تتحول إلى أخرى عن طريق فصل أو تجميع الذرات . فمن الممكن أن تندمج ذرتان عند درجة إشباع معينة ليصبحا ذرة واحدة تكون مادة جديدة .

كما أن المادة تتحول من صورة لأخرى عن طريق تعديل وترتيب الإلكترونات والبروتونات فى الذرة، فالتغيير إذن لا يتم بالتناقض ولا الصراع كما اعتقد ماركس ، ولم تعد حركة المادة

تفسر على أنها تغيير ذاتى من داخل الذرة ، فلابد من التأثير الخارجى . أى تأثير ذرة على أخرى لكى يتم التحويل . كما يتطلب تحويل المادة من صورة إلى أخرى (من الجامد إلى السائل مثلاً) تأثير خارجى كرفع درجة الحرارة حيث يتم تعديل وترتيب الإلكترونات والبرتونات داخل الذرة .

هذه الحقائق العلمية – التى يدرسها طلبة المدارس اليوم – تحطم تماماً نظرية ماركس المسماه بـ "الاشتراكية العلمية"

وللقارئ أن يتساءل متعجبا : وهل لا تخفى هذه الحقائق على العلماء الماركسيين .

بالطبع لا تخفى ، فالعلم هو العلم لا يتغير بتغير المكان .

لكن لنرى كيف يكون رد فعل الماركسيين تجاه الحقائق العلمية التى تتعارض وأفكارهم .

يقول الدكتور عصمت سيف الدولة فى كتابه "أسس الاشتراكية العربية" : لقد قامت الجدلية المادية على فرضية لفظية "أن الطبيعة جدلية" وليس معنى ذلك أنه قد ثبت هذا علمياً، ولكنها ضرورة لتفسير حركة المادة يوم أن كانت حركة المادة غير معروفة ، أو لعل هذا أن يكون قد وضع لمجرد تبرير تطبيق

القوانين الجدلية على المادة، ولست أرى مبرراً للتمسك بقانون الجدل – القانون الرابع – وإرغام المادة على قبوله بعد أن فسر العلم حركة المادة ، وأثبت بتفسيره هذا أن القوانين الثلاثة الأولى صحيحة علميًّا وكافية لتفسير تلك الحركة فالعلم الذى نفى عن المادة جدليتها أثبت فى الوقت نفسه :

أن كل شئ متأثر ومؤثراً فى غيره .

وأن المادة فى حركة دائمة

وأنها تتحول تحولاً مستمرًّا من نوع إلى آخر (*) .

(*) لا يا سيادة الدكتور ! فالعلم لم يثبت تلك القوانين ، بل إن العلم فند تماماً نظرية داروين التى يستند إليها القانون الثانى كما أن تجربة التطبيق فى العالم الإسلامى – بل وحتى الرأسمالى – سارت بعكس ما يقرره القانون الثالث من حتمية المجتمع الاشتراكى . أما من حيث القانون الأول فإنه من البديهيات وليس من خصائص التفكير الماركسى وحده.

ومع ذلك فليس هذا هو المهم . فأساس القوانين الاشتراكية هو قانون التناقض – بنص عبارات زعماء الاشتراكية من ماركس إلى ستالين إلى ماوتسى يونج – فكيف نغفل فى حسابنا هذا التصدع الهائل فى البناء الاشتراكى ؟ وكيف نمضى معهم وقد أثبت العلم – وباعتراف الماركسيين أنفسهم – خطأ هذا القانون ؟ .

لقد كان ماركس وإنجلز معذورين عندما قالا : إن المادة جدلية، فقد كان الجهل بالحركة الداخلية للذرة يسمح لهما بهذا الافتراض الذى يسهل لهما تبنى القوانين التى وضعها هيحل كلها واستعمالها معاً ، أما أن يقول هذا واحد بعد منتصف القرن العشرين فهذا أمر لا يدل إلا على أنه كان نائماً ، وقد آن الأوان ليستيقظ النيام ولو حتى على هدير الصواريخ فى عهد الذرة"

وجاء فى كتاب "أسس الماركسية – اللينينية" : "إن المادة فى عالم المرئيات وعالم غير المرئيات – الذرى – لا يحركها ولا يحدد مستقبلها التناقض الجدلى فى ذاتها ، أى أن المادة فى العالمين غير جدلية"

جاء هذا فى الطبعة الأولى من الكتاب ثم حذفت تلك الفقرة من طبعته الثانية [1] !.

هذا المثال يكشف لنا كيف يتعامل الشيوعيون مع الآراء المعارضة [2].

---

(١) عن كتاب "حوار مع الشيوعيين" لعبد المنعم خفاجى

(٢) نذكر بأن المؤلفات المعادية للإسلام ما زالت تدرس فى جامعاتنا ، وأن كثيراً ممن يلقبون بأقطاب الفكر والأدب فى بلادنا هم من أصحاب الدعوات الإلحادية الهدامة.

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه "الشيوعية والإنسانية" :

"ففى كتاب "المادية والنقد التجريبى" يسرد لينين قواعد البحث التى ينبغى أن يجرى عليها العلماء ولا يخالفوها.

وفى سنة ١٩٣٢ قرر مؤتمر الاتحاد العام للعلماء أن علم الناسلات وتربية النبات يجب أن يطابق المادية الماركسية . وقد عوقب بالنفى والاعتقال – أو التصفية – رهط من العلماء لوحظ عليهم أن بحوثهم لا تؤدى إلى النتيجة التى يفترضها هذا القرار"

وبعد . هل لنا ما نقوله بعد أن قال العلم كلمته؟!

شخصية ماركس ونشأة الفكر المادى

إن دراسة صاحب النظرية من صلب دراسة النظرية نفسها ، وهكذا لا تكتمل الصورة عن الماركسية إلا بدراسة شخصية "كارل ماركس" ذلك المفكر اليهودى الألمانى الذى عاش فى ظل استبداد دينى فأراد أن ينقذ البشرية منه – أو هكذا يقولون ! – فأوقعها فى ظلم واستبداد أبشع منه وأسوأ!

ولا شك أن أعدل الأساليب وأكثرها حياداً فى دراستنا لهذه الشخصية ، هى نقل آراء أصدقائه ومريديه فى تصرفاته

وأخلاقياته ، وبعدها لا تبقى حجة لهؤلاء الذين يسلكون دربه في التفكير ويتمسكون بفلسفته ويتشدقون بعلمه!

كتب إليه أبوه قائلاً "إنك – لسوء الحظ – تؤيد بسلوكك رأيي الذى كونته عنك ، وأرى إنك – على ما فيك من خصال حسنة – أنانى تغلب الأنانية على جميع صفاتك (*).

ويؤكد هذه الصفة فيه أحد أساتذته وهو "باكونين" زعيم "الفوضوية" والذى تلقى عنه ماركس أوائل دروسه فى المذاهب الاجتماعية.

يقول باكونين "يحب ماركس نفسه أضعاف حبه لأصدقائه ومريديه .. وما من صداقة تصمد لحظة إذا مسته لحظة فى غروره وكبريائه.

أنه لا يغتفر أبداً أصغر الإساءات إلى شخصه ولا بد لك من أن تعبده وتتخذه وثناً تصلى بين يديه إن أردت أن تظفر بمودته، أو لابد لك من أن تخافه وتهابه إن أردت أن يحتملك ويصبر عليك . وهواه أن يحيط نفسه بالأقزام والمتزلفين.

(*) " الشيوعية والإنسانية" للعقاد.

إن ماركس ينطوى على خليقتين ذميمتين: "الغرور والغيرة" بل إن ماركس لم ينج من نقد وتوبيخ صديقه وشريك دعوته "إنجلز" الذى كتب إليه متأثراً من رده على خطابه له ، والذى نعى فيه إليه خليلته ، فلم يتحرك لمصابه ، فكتب إليه إنجلز قائلاً " من البداية أنك سترى مما أنا فيه من الحزن وما أنت عليه من جمود الطبع ، أننى لم أكن أستطيع أن أجيبك قبل هذا التاريخ . إن أصحابى جميعاً – ومنهم المخالفون – قد أبدوا لى من العطف والعزاء فوق ما كنت أنتظر . أما أنت فقد لاح لك أنها فرصة لإظهار سموك بالتعالى عن الحزن وجمود العاطفة . . ليكن ما أردت ، سلمنا لك بما تريد فأنعم بانتصارك" .

فإذا ما تركنا جانباً آراء أنصاره وأصدقائه نجد فى سيرة حياته وأفعاله ما يناقض أقواله ومبادئه . وما أرذل هذه الصفة فى الإنسان وما بالك لو كانت سمة زعيم ومفكر صاحب فلسفة وتصور شامل للحياة؟!.

إن أساس المذهب الماركسى أن " من لايعمل لا يأكل" والمضحك أن صاحب الشعار لم يعمل وفى نفس الوقت أكل . . وأكل كثيراً !!.

كان يرهق أباه بطلب المال رغم علمه بحاجته لما يدخره للإنفاق على علاجه وعلاج ابنه المريض بعد عجزه عن الكسب ، حتى أن الأب لم يجد بدًّا فى النهاية من مصارحته بتأنيب شديد قائلاً " ماذا تظن ؟ أتراك تحسبنا مخلوقات من ذهب؟" .

بعد وفاة أبيه لم يكلف نفسه مشقة السؤال عن أهله وإخوته الصغار ، ولم يشغله سوى طلب حصته من الميراث بل وتعداه ليسلب نصيب أمه وأخوته . (يلاحظ أن الشيوعية ترفض نظام الإرث !) .

وعندما ضضاقت أمة بتصرفاته، كتبت رليه غاضبة "إنك الآن فى الرابعة والعشرين فاعتمد على سعيك فى كسب رزقك ولا تنتظر بعد اليوم مدداً نقطعه لك من قوت أهلك " (*) .

وإذا كان البعض قد يلتمس له شيئاً من العذر بحجة حاجته للمال لتفرغه للبحث والدراسة فى بداية حياته ، فإن الأمر يختلف إذا ما علمنا أنه ظل على حاله هذا حتى بعد أن أنجب وأصبح مسئولاً عن أسرة كاملة .

(*) من كتاب البروسى الأحمر .

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه " الشيوعية والإنسانية" :
"وكانت الاستعارة غير المردودة وسيلته التى لا وسيلة غيرها فى معاشه ومعاش زوجته ، حيث كان وحينما انتقل بين ألمانيا وفرنسا وهولندا وإنجلترا التى كان يهجرها ليعود إليها دواليك كلما استغلقت عليه أبواب الاستعارة فيها وتقبل من المعونة – بل من الإحسان – ما لا يقبله رجل ذو كرامة ، فكان زملاؤه الذين يضيقون بطلباته المتلاحقة يحيلون عليه الأعمال التى تطلب منهم فيقبلها وهو لا يحسن أداءها ليحيلها على من يحسن الأداء ويستولى على أجورها " !!

هل نسترسل أم نكتفى ؟ .

قد تدهش هذه العجالة ، عن شخصية ماركس ، بعض من تفتنهم زعامته لمذهب يخطط لما يزيد عن نصف سكان المعمورة(*)، فيدفعهم الفضول لمعرفة المزيد عن شخصيته . لكنّا فى الواقع لا نهتم بإلقاء المزيد من الضوء على هذه الشخصية الخربة ، ذلك أن من أسس فلسفة تقوم على الهدم لا يمكن أن يكون إلا ذو نفس مريضة مختلة مطبوعة على الحقد والضغينة .

(*) باعتبار ما كان قبل سقوط الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى وأوربا الشرقية (الطبعة الثانية) .

نضيف إلى ذلك تأكدنا من رفض هؤلاء المساكين – الذين يعيشون خلف الستار الحديدى الشيوعى – لهذا الفكر الهدام لو أتيحت لهم حرية الاختيار (*) ، فالإنسان بفطرته يتطلع للحرية وينفر من الدكتاتورية التى تحيله إلى ترس أصم فى آلة الشيوعية العالمية ، ناهيك عن تردى الماركسية وتراجعها عن معظم مبادئها (وسوف نشير إلى ذلك عند حديثنا عن التطبيق)

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا " كيف حدث إذن أن التفت تلك الجموع حول ماركس وآمنت بدعوته" ؟

والإجابة تتعدد والأسباب تختلف ، وإن كنا فى البداية نذكر بأن الشيطان نفسه له أتباعه ومريديه ، فهل كثرة أنصاره فى عصرنا تغير من حقيقة كونه شيطاناً يحمل لواء الفساد والخراب؟ .

لينظر أى منا إلى إنسان شيوعى يعرفه ، ويرى كيف يسلك فى حياته أرذل المسالك وأعوجها وكيف أنه لا يعتد بأى

(*) حملت إلينا وكالات الأنباء – أثناء كتابة هذا الجزء من الكتاب (عام ١٩٧٦) – خبر طلب أكثر من عضو رياضى من البعثات الشيوعية اللجوء السياسى لكندا وذلك أثناء دورة مونتريال للألعاب الأولمبية .

قيمة أخلاقية ، ويتبع فى حركته ودعوته أسلوب " الغاية تبرر الوسيلة"

لقد عايشت نفراً من هؤلاء الماركسيين أثناء حياتى الجامعية(*) وأعترف بأن لهم الفضل الأكبر فى كفرى واشمئزازى من الفكر الماركسى الذى دأبوا – وما زالوا – على نشره بين طلبة الجامعة تحت ستار أسماء تجمعات مختلفة مثل: التجمع الوطنى – القوى التقدمية – الاشتراكية – التجمع الطلابى العمالى – أنصار الثورة الشعبية – نوادى الفكر التقدمى .... إلى آخر هذه التسميات التى تخلو جميعها من كلمة "الماركسية" وهى فى حقيقتها ماركسية الأصل ولكن أكثر شبابنا لا يجهد نفسه فى البحث عن الحقيقة فيما وراء الشعارات !

وإذا كانت الماركسية قد جردت اليوم من معظم قوانينها ، حتى أنه لم يتبق لأتباعها غير الشعارات يتعلقون بها أملاً فى

(*) فى كتاب " أسرار الحركة الطلابية " كشفت أسلوب الشباب الماركسى فى العمل والدعوة واستقطاب السذج والجهلة من طلبة الجامعات والواضح أن أسلوبهم لايختلف كثيرا عن أسلوب زعمائهم الكبار المنتشرين فى أجهزة إعلامنا .

فرض دكتاتوريتهم على الشعوب الفقيرة ، فإن ظروف الحياة وطبيعة البيئة فى القرن التاسع عشر قد ساعدت إلى حد كبير فى التفاف الكثيرين حول ماركس دون اعتبار لفساد شخصيته والتى سعى الكثير من أصدقائه إلى التستر على مساوئها أو تعليل ما قد يصعب التستر عليه أو إخفائه .

فهذا "أوتوروهل" صاحب كتاب "كارل ماركس : حياته وعمله " يقول عن أستاذه " أنه كان نموذجاً فيما كان يعانيه من اعتلال نشاطه الروحى وكان على الدوام متقلباً مبتئساً حقوداً لا يزال فى تصرفه عرضة لتأثير سوء الهضم والانتفاخ وهياج الصفراء وكان موسوساً يعلو كجميع الموسوسين فى الشعور بمتاعبه الجسمية ، وكما كان يعتمد فى الطعام الذى لا ينتظم فيه على الاستعانة بالتوابل والمخللات والبيض والسمك المملح وما إليها . . . كان يستعين بأمثال ذلك فى عمله وعلاقاته بغيره ولا يخفى أن الأكل السيئ عامل سيئ وزميل سيئ فى الوقت نفسه .

ويستطرد " أوتوروهل "فى تعليل الخلل الملازم لصديقه وأستاذه " ماركس " فيشير إلى مرض الكبد المتأصل واعتلال بنيته

اعتلالا ينبئ عن وهن أصيل فى التركيب ، ومنها انتسابه إلى الملة اليهودية فى بلاد تنظر إلى هذه النسبة كأنها وصمة اجتماعية، ومنها آفة الولادة الأولى أو ما ينتاب تربية الولد الأول من عوارض التدليل والانفراد " .

وهكذا يرجع " أوتورهل " عيوب ماركس إلى أسباب شتى يلخصها فى اعتلال البنية والشعور بوصمة المجتمع وإنفراده برعاية أبويه لآنه أول الأبناء.

نعود للحديث عن طابع الحياة فى القرن التاسع عشر فقد نستخلص منها أسباب انتشار دعوة ماركس وكثرة مؤيديه.

وبدون الانغماس فى قراءات تاريخية متعمقة ، نشير إلى أن أوربا عاشت فى عصور ظلام متتالية إلى أن بدأت موجات الإصلاح والتى ارتبطت بالتقدم العلمى الذى توالد كنتيجة مباشرة لاتصال أوربا بالحضارة الإسلامية .

أما سبب هذا الظلام .. فكان رجال الدين .

نعم . الدين ! الدين المسيحى بعد أن انحرفوا به الى ما تبرأ منه المسيحية الحقة .

وعاشت أوربا لقرون طويلة تحت استبداد دينى تمثل فى

نظام " البابوية " وفرض سيطرة " البابا " ومناصرة الكنيسة الكاثوليكية للإقطاع ومعارضتها العلم.

(ولعل هذا ما يدفع البعض منا إلى محاربة الإسلام بدعوى أنه " دين " يعارض " العلم " ويقف ضد تحرير الإنسان ! ولكن ما علينا الآن من هذا الافتراء فقد نعود إليه فى موضع آخر من الكتاب).

بدأت أولى حركات الإصلاح فى القرن الخامس عشر حيث قام " مارتن لوثر " وكافح " تعاليم الشيطان " كما سماها .. وهى تعاليم البابوية والكنيسة الكاثوليكية ودعا إلى جعل الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للإيمان . وحارب سلطة " البابا " و" صكوك الغفران" . وما إلى ذلك من رسوم العبادة فى المسيحية الكاثوليكية .

وهكذا كانت دعوة " لوثر" تقوم على سيادة الدين بعد تنقيته.

وفى القرن الثامن عشر ظهر (فيشته)(*) بمذهب جديد يقوم على استقلال العقل وسيادته على نفسه وعلى العالم

(*) فيشته جوهان عوتليب فيلسوف ألمانى (١٧٦٢ – ١٨١٤).

الخارجى منه واستخدام مبدأ (النقيض) فى مجال (التصور الذهنى) بمعنى إدراك قيمة العقل الإنسانى واستقلاله وحريته .

ثم جاء (هيجل) مع بداية القرن التاسع عشر واستخدم مبدأ "النقيض" فى مجال "الفكرة" فأرجع خلق الوجود إلى فكرة مطلقة أسماها " العقل المطلق" ونقيضها هو " العقل المقيد " فالله الخالق هو " فكرة مطلقة " أو " عقل مطلق" له وجود ذاتى أزلى ، ومنه انبثقت الطبيعة كضد له وهى مقيدة محدودة وتعرف " بالعقل المقيد" .

ففى فلسفة " هيجل " ، وبتطبيق قانون التناقض ، نجد أن الفكرة فى " العقل المطلق" انطوت على نقيضها فى " العقل المقيد" أى أن الله – كعقل مطلق – لم يخلق الطبيعة ، وإنما يحمل فى ذاته نقيضه ، لذلك كانت الطبيعة ضرورية وصدفة وليس فيها حرية واختيار .

وبعد هذا يجتمع الشىء ونقيضه فى صورة جديدة يطلق عليها " العقل المجرد " . إذن فالعقل المجرد ليس له انطلاقة العقل المطلق ولا تحديد العقل المقيد وهو يمثل صورة اتصال العالم بعضه ببعض ، بمعنى أنه يتمثل فى القوانين والأخلاق والدولة والفلسفة .

وقد تحدث هيجل عن الدولة باعتبارها صورة من صور "العقل المجرد" التى تمثل "الإرادة العاقلة الإلهية" وهكذا كان يدعو إلى طاعة الدولة طاعة عمياء ولهذا سمى بـ "فيلسوف البلاط".

ثم تميز القرن التاسع عشر باتجاه فكرى جديد يرفض سيادة الدين أو العقل ويميل إلى سيادة الطبيعة على كليهما. وسمى هذا المذهب بـ "الوضعية" ومن أبرز فلاسفته "كومت"(*) الذى لم يعترف إلا بالموضوع الوضعى الذى يجىء أثر التجارب الحسية، وأعلن أن كل ما وراء الطبيعة (الله – الوحى – الدين) هو وهم وخداع.

وجاء ماركس بعد هذه المراحل الثلاث (سيادة الدين – سيادة العقل – سيادة الطبيعة) ونشأ فى عصر تجمعت فيه كافة الاتجاهات الفلسفية ضد الدين ممثلا فى الكنيسة. كذلك لا حظ ماركس سوء استغلال "رأس المال" للعمال ووقوف الكنيسة بجانب هذا الاستغلال واكتفائها بوعد الطبقة البائسة بحياة رغدة هنيئة فى العالم الآخر.

(*) عالم اجتماع وفيلسوف فرنسى (١٧٩٨ – ١٨٥٧).

والجديد الذى أتى به ماركس هو استخدامه لمبدأ النقيض فى مجال "الاقتصاد" بعد أن استخدمه (فيشته) فى مجال "التصور الذهنى" و" هيجل " فى مجال " الفكر أو العقل " وأسس بذلك الفلسفة المادية التى تقوم على جدلية هيجل وإن كان قد خالفه تماماً حيث رأى أن المادة هى خالقة العقل بعكس هيجل الذى أرجع أساس الخلق إلى العقل.

وقد أوضح ماركس ذلك فى مقدمة كتابه "رأس المال" حيث يقول : " لا يختلف منهجى الجدلى فى الأساس عن منهج هيجل فقط ، بل هو نقيضه تماماً إذ يعتقد هيجل أن حركة الفكر التى يجسدها باسم الفكرة هى مبدعة الواقع الذي ليس هو سوى الصورة الظاهرية للفكرة . أما أنا فأعتقد على العكس ، أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس حركة الواقع وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان ".

لكن ما الذى دفع ماركس إلى رفض الدين ورفض فكرة وجود خالق سابق لخلق المادة وموجد لها ؟.

لا شك أن فلسفة هيجل – الفلسفة المثالية – كانت وراء اندفاع ماركس للبحث عن تفسير آخر للحياة .

وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية قد تاهت فى ظلمات التفسيرات المبهمة التى تعجز عن تقديم تصور شامل للحياة تطمئن إليه النفس البشرية (*) ، فإن فلسفة هيجل المثالية قد عجزت هى الأخرى عن تقديم التفسير المقنع ، وذلك لأنها ناقشت بالعقل موضوعاً خارج نطاق العقل . بل إن أى مفكر يحاول أن يقدم تفسيراً لماهية "الخالق" سوف يضل تماماً كما ضل هيجل حين صوره على أنه مجرد "عقل مطلق" .

ومن هنا تتأكد حاجة البشرية إلى "الوحى" الذي يقدم لها التفسير الصحيح المقنع. ونحن حينما نؤمن بالوحى ، نعبر فى الواقع عن حاجتنا الملحة لوجود اتصال بيننا وبين خالقنا .

هذا الاتصال لن يقوم به العقل لأن العقل لن يدرك خالقه وإلا انتفت تماماً حقيقة وجود خالق ومخلوق . وهذا من المحال

(*) هذا الموضوع قد أجد الكثير من الحرج فى تناوله ، علاوة على أنه ليس من صلب موضوع الكتاب . وهناك العديد من المؤلفات التى تعرضت له وأوضحت معنى وحقيقة "التثليث" أما حكم القرآن الكريم فقاطع لا لبس فيه: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة : ٧٣].

لأننا إذا كنا لا نستطيع أن نخلق ، فلابد أن نكون مخلوقين . ولولا الوحى لآلت حياتنا إلى جحيم وعذاب مستمر لا ينتهى إلا يوم لقائنا بخالقنا .

هكذا كانت الفلسفة المثالية (*) سبباً مباشراً لاتجاه ماركس للتفكير المادى ، فضلا عن سوء الواجهة الدينية التى اتسم بها عصره والتى تمثلت فى مناصرة الكنيسة للإقطاع ثم البرجوازية والرأسمالية .

والمتتبع لكلمات ماركس يلاحظ تهجمه الشديد على هذه الفئة من رجال الدين الذين ناصروا الظلم واستبدوا برأيهم واستغلوا سلطة الكنيسة أبشع استغلال . والحقيقة أن سلوكا دينيًّا كهذا لا يمكن أن ينتج إلا رد فعل مساير تماما لموقف ماركس . والواقع أننى لا أجد أى غضاضة فى موقفه من الكنيسة الكاثوليكية ، بل أننى أذهب إلى أبعد من هذا فأقرر أن فى مواقف بعض ما يسمون أنفسهم " رجال الدين " فى الإسلام ما يدفع المظلومين والفقراء إلى إتخاذ نفس موقف ماركس ، ومن

(*) المقصود بالمثالية هنا اتجاها فلسفياً ، فهى لا تعنى أى معنى أخلاقي .

ثَمَّ يرتمون فى أحضان " اليسار الماركسي " ورحم الله سيدنا على الذى ينسب إليه قوله " لو كان الفقر رجلا لقتلته"

الإسلام لا يقبل الظلم والاضطهاد ، وهو لا يمنى المظلومين بمجرد جنة فى الآخرة ، بل يدعوهم إلى رفع السلاح من أجل رد الظلم عنهم (ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد) .. صدق رسول الله .

إذن نحن نعترف بأن لماركس الكثير من العذر وهو يتخذ موقفه هذا من الدين (وأرجو أن يلاحظ اليسار المصرى أى دين أقصد !) .

لقد رفض ماركس الظلم فماذا قدم بديلا عنه؟ .

إنه ظلم أفدح وأشد !! .

أراد ماركس أن يحرر الإنسان – أو هكذا يدعون ! – فإذ به ينزله أعتم مدارك العبودية والاستغلال .

أصبح الإنسان فى فلسفة ماركس أسير المادة ، بل جعلها خالقة له فهو بذلك أدنى من الجماد الذي لا حرية له على الإطلاق !! وهكذا ، فى حين يقرر الإسلام أن الله قد كرم بنى آدم

وخلق للإنسان المادة وسخرها له لينعم بها ويستفيد منها. جاء ماركس ليعكس الآية ويحقر من قيمة الإنسان ويجعله عبداً مخلوقاً من هذه المادة !! وإذا كانت هذه هى حقيقة المادة فى الجانب الفلسفى من نظرية ماركس ، فإن القوانين السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة على هذا الأساس الفلسفى لا تحيد فى الواقع عن حقيقته، فهذه القوانين تستعبد الإنسان فى ظل النظام الاشتراكى – أو الشيوعى – استعباداً لم يعانى مثله الإنسان على مدار التاريخ البشرى .

لكن هل هذا هو كل ما فى الأمر ؟ هل المسألة تنتهى عند الاعتقاد بحسن نية ماركس وأنه قد ضل الطريق للإصلاح ومن ثَمَّ نغفر له ونصمت ؟.

بالطبع لا !

إن دراستنا لتاريخ حياة كارل ماركس تؤكد أننا أمام شخصية تجمع فى جوانحها كل نوازع الشر والخسة والوضاعة حتى أنه ليكاد يكون الشيطان ممثلا فى صورة إنسان .

ونحن قد نغفر – ولا يغفر إلا الله – سقطات إنسان نعلم

عنه الصدق فى حديثه والأمانة فى معاملاته والسمو فى أخلاقياته، أما أن تكون شخصيته مثالا حيًّا مجسداً تؤكد تأصل المسببات التى تحتم وصوله إلى ما انتهى إليه من نتائج، فإن البحث عن تبرير وتعليل لتصرفاته لا يعدو أن يكون مجرد ضرب من الغفلة العلمية وضلالة القدرة على الحكم والتمييز. غير أن هناك ما هو أدهى وأخطر من ذلك كله . هناك ما يتعمد الماركسيون إنكاره وإغفاله حينما يتحدثون عن نبيهم ... اليهودى لنشأة!.

يقول " هارى ليدلر" فى كتابه "الحركات الاجتماعية الاقتصادية " :

إن أباه كان من رجال الشريعة الإسرائيلية وأن جده كان من الربانيين، وإن أمه تنحدر من أسرة هولندية ربانية هاجرت من هولندا فى القرن السابع عشر إلى البلاد المجرية.

وهذه الأسرة العريضة العريقة فى الديانة اليهودية قد تحولت – أبا وأما – عن دينها إلى الدين المسيحى بعد ولادة "كارل" بست سنوات ، ولم يتحول الأبوان معاً عن عقيدة وإيمان صادق بالمسيحية ولكنهما اتفقا على ترك الدين الذي انحدرا من

سلالة فقهائه ورؤسائه تمهيداً لفرص العيش ، ثم تمهيداً لفرص المستقبل أمام الابن الذي بلغ السادسة وأراد فى هذه السن الباكرة أن يحولاه معهما من ديانة الآباء والأجداد إلى ديانة الدولة والمجتمع الذي يعيشان فيه .

وإذا كان الأستاذ العقاد فى كتابه " الشيوعية والإنسانية" يربط بين الأساس المادى الاقتصادى لمذهب ماركس وشعوره الدينى حيث يقول :"ولا تكون المادية الاقتصادية هنا فكرة من أفكار البحث والمنطق والدراسة العقلية وكفى ، بل تكون فى ضميره لاعجة من أقوى اللواعج النفسية التى تتطلب التنفيس والتهدئة ، وتهمة كامنة فى الأعماق تحاول جهدها أن تنتفض من أعماقها وتتخذ لها نزعة من نوازع التسويغ أو نوازغ التحدى والمفاخرة حينما تفتحت لها دخائل الفكر والوجدان .

وكأنه يقول من وراء المادية الاقتصادية متسائلا متحدياً : "ماذا صنع أبواى ؟ أتراهما صنعا شيئاً يعاب عليهما أو يعاب على أحد ؟ أتراهما على نقص فى الأخلاق والضمير لأنهما تحولا عن الدين التماسا للمنفعة الاقتصادية أو المنفعة المادية ؟"

إذا كان هذا مايتراءى للأستاذ العقاد – رحمه الله – فإننى لا أكتفى بمجرد الاعتقاد بأن هذه العلاقة تبدو ولا تنعكس إلا فى قيام مذهبه على "المادية الاقتصادية" فقط ، بل أضع علامة استفهام خطيرة أمام علاقة ماركس باليهودية .إننى أتساءل عن ارتباط هذا اليهودى بالحركة اليهودية العالمية التى تسعى دائما للسيطرة على العالم . وهم – أى اليهود – يسلكون لذلك شتى المسالك ويتلونون بمختلف الملل ، ويصدرون للشعوب المذاهب الهدامة التى تفسد النفوس وتهدم القيم والأخلاق ومن ثم تتيح لهم السيطرة على معتنقيها .

أتساءل بعد أن قرأت كتاب " أحجار على رقعة الشطرنج" وهالنى ما ذكره المؤلف " وليم غارى كار " – استنادا إلى وثائق مؤكدة – من تخطيط اليهود للاستيلاء على العالم ، وكيف أنهم كانوا وراء سائر الدعوات الهدامة التى ظهرت فى العصر الحديث . بل أن المؤلف يكشف فى كتابه – الذي يختفى دائما فور صدوره! – دور اليهود فى إشعال الحربين العالميتين ، ويؤكد أنهم يقفون الآن وراء القوتين العالميتين : الشيوعية والرأسمالية بهدف

الاستيلاء على العالم وإقامة حكومتهم العالمية بعد تحطيم كلا النظامين فى حرب عالمية ثالثة سيكون مركزها هنا فى الشرق الأوسط ! عندما نقرأ مثل هذا الكلام وتتكشف لنا هذه الحقائق الرهيبة ، ينبغى علينا أن نعيد دراسة الحركة الشيوعية وتاريخ مؤسسها، بما يكشف لنا علاقة الماركسية باليهودية، ومدى ارتباط اليسار بدعوة ماركس للهدم وسلخ الدين من حياة البشر، وذلك عن طريق وهم ما يسمى بحكم طبقة البروليتاريا . وكأن الطبقة العاملة لن تنال حقوقها إلا بابتعادها عن الدين !! .

وأخيرا علينا أن نتذكر دائما ، ولا ننسى أبداً ، موقف الأحزاب الشيوعية اليسارية العربية أبان حرب فلسطين، والتى تعاطفت بشكل مخز مع اليسار اليهودى فى دعوته لإقامة دولة إسرائيل.

نتذكر هذا رغم حماسة شعارات اليسار التى يطلقها فى وطنية زائفة تدعو لتجميع القوى من أجل جولة أخرى مع إسرائيل. وكفى ما عانيناه من جراء تصديقنا لأصحاب الشعارات .. والتاريخ القريب مازال يحمل لنا أبشع وأقسى الذكريات .

إن تجربتنا مع أصحاب الشعارات مازالت ماثلة فى أذهاننا

بالدرجة التى يصعب بها على أصحاب اليسار خداعنا مرة أخرى!.

ولأصحاب الشعارات . . نقدم ما ذكره المفكر الصهيونى المعاصر " الحاخام لويز برونس " فى كتابه " أغرب من الخيال " : "إن كارل ماركس حفيد الحاخام مروخاى ماركس ، كان فى روحه واجتهاده وعمله ونشاطه وكل ماقام به وأعد له من فكر وأسلوب، أشد إخلاصا لإسرائيل من الكثيرين الذين يتشدقون اليوم بأدوارهم فى مولد الدولة الصهيونية" .

ترى . . ما رأى الماركسيين فى هذا القول ؟!.

وماذا بعد ؟

من حقنا أن نتوقف عن البحث فى أصول الماركسية بعد أن أثبت العلم خطأ الافتراضات التى صيغت على أساسها الفلسفة المادية الجدلية .

ولكن ، وحتى لا نظلم أصحاب اليسار . . لا يضيرنا أن نتوقف قليلا عند تطبيقهم للمنهج الجدلى على التاريخ فيما يسمى بـ " المادية التاريخية "

المادية التاريخية

باستخدام " المادية التاريخية " يرجع الماركسيون نمو الأحداث التاريخية وتطور المجتمعات إلى القوى الاقتصادية وحدها ، وعلى الأخص العلاقة بين المال والعمل .

وقد أجمل إنجلز ذلك فى قوله : " إن الأسباب المباشرة والنهائية للتطورات الاجتماعية والثورات السياسية ليس مردها إلى تفكير الأفراد وتعمقهم فى البحث عن الحق والعدالة وإنما مردها إلى تلك التغيرات التى تطرأ على نظام الإنتاج والاستبدال"

وعلى هذا الأساس ، ترى الماركسية أن التاريخ البشري قد مر بالعصور الآتية :

١ - **عصر المشاعية البدائية** : وقد خلا من التناقض لانعدام الملكية فى ذلك العصر .

٢- **العصر العبودى** : ويتميز بظهور طبقتى الأسياد والعبيد كنتيجة مباشرة لإقرار مبدأ الملكية الزراعية .

وقطبا التناقض هنا هما الأسياد والعبيد

٣ - **العصر الإقطاعى** : وهو امتداد للعصر العبودى وإن كان قد تميز بتطور العلاقة الإنتاجية بين الأسياد والعبيد ، حيث سمح للعبيد بتملك أجزاء محدودة من الأرض .

٤ - **عصر البرجوازية** : ويمثل نهاية التناقض بين الأسياد والعبيد، وانتصار الطبقة الجديدة - البرجوازية - والتى نشأت نتيجة تغير قوى الإنتاج وتحوله من الزراعة إلى التجارة ثم الصناعة. وبالتالى مهد هذا العصر لظهور الرأسمالية .

٥ - **عصر الرأسمالية** : ويتميز بانتصار " رأس المال " وسيطرته . وقطبا التناقض فى هذا العصر هما العمال وطبقة الرأسماليين .

٦ - **عصر الاشتراكية** : وهى مرحلة تمهيدية تسبق ظهور عصر الشيوعية وفيه يشتد الصراع بين العمال والرأسماليين ينتهى فى النهاية لصالح طبقة العمال - البروليتاريا .

٧ - **عصر الشيوعية** : حيث تنتهى جميع صور التناقض وتستقر البشرية تحت حكم طبقة البروليتاريا !

هذا هو تفسيرهم لحركة التاريخ .

ونحن نرى أن المسألة لا تحتاج منا لمزيد من النقاش والتحليل ، وذلك للأسباب التالية :

أولا : يعتمد هذا التفسير على اتباع المنهج المادى الجدلى الذي يرفضه كل من يؤمن بالعلم – ولا أقول حتى الدين – ولذلك نرى أنه لا فائدة من دراسة تفسير يقوم أساساً على منهج مرفوض .

ثانياً : لقد كان هدف " ماركس " الوحيد من استخدامه للمنهج الجدلى فى تفسير حركة التاريخ هو استخلاص الأسباب التى يؤكد بها حتمية انهيار النظام الرأسمالى وقيام النظام الشيوعى من بعده .

ونحن لا يهمنا هذا التفسير فى شىء، لأننا على يقين من انهيار النظام الرأسمالى ولكن لغير الأسباب التى أوردها ماركس .

ثالثا : اقتصرت دراسة ماركس على تطور المجتمع الأوربى فقط ، لذلك فإن قوانينه لا تعتبر حتمية بالنسبة لسائر المجتمعات الأخرى .

رابعا : أثبت تطور المجتمع الرأسمالى خطأ تصورات

ماركس كلها . وقد ظهرت فى أوربا وأمريكا العديد من المؤلفات التى فندت مزاعم ماركس من أن طبيعة الإنتاج الرأسمالى ستؤدى إلى المزيد من الشقاء لطبقة العمال وبالتالى تتراكم " التحولات" عند هذه الطبقة إلى أن تنتهى بـ " الكم " الذي يفجر ثورتهم ضد الرأسمالية.

ونحن نرى اليوم عمال النظام الرأسمالى أكثر رفاهية من عمال النظام الاشتراكى !.

خامساً: إن قيام النظام الاشتراكى فى روسيا يبطل ما أكده ماركس من حتمية قيام هذا النظام كنتيجة لـ " صراع التناقضات " داخل المجتمع الرأسمالى . فمن المعروف أن روسيا القيصرية كانت أشد تخلفاً من أوربا الغربية . والاشتراكية ما كانت لتقوم فى روسيا لو سلمنا بصحة تحليل ماركس . فالمفروض – تبعاً لتحليله – أن يقوم النظام الاشتراكى فى الجانب الأكثر تقدما من الناحية الصناعية وهو ما أكده ماركس بنفسه عندما تنبأ باندلاع الثورة الاشتراكية فى إنجلترا. لكن التاريخ لم يجامله!!.

سادساً: إن فى دراستنا لتاريخ تطور المجتمع الإسلامى ما يغنينا عن تلمس منهاج للبحث عند ماركس أو غيره.

إن الإسلام – كنظام متكامل مستقل – له منهاجه الخاص فى تفسيره لحركة التاريخ .

والقرآن الكريم ، حينما يسرد تاريخ البشرية ، يتوقف بنا دائما عند الرسالات والرسل ، ويفسر لنا الحياة من خلال تاريخ الأديان .

إن المسلم ، فى فهمه العام لطبيعة الحياة ، يرى التاريخ سجالا بين الحق والباطل ، بين الهدى والضلال ، وبين الإسلام والشرك فى دورات لا تتوقف .

نحن نرى أن المجتمعات كانت تتطور إلى الأرقى كلما اتسقت حركتها مع حركة الكون من حولها . . كلما اتصلت بالله وخضعت لقوانينه ونواميسه .

الإسلام يقرر أن الإنسان هو الأداة وراء كل أداة . هو المحرك للأحداث . . هو محور الحياة . . كلما ارتقى ، ارتقت الحياة .

الإسلام يكرم الإنسان ويجعله هو الأعلى . . لا المادة ووسائل الإنتاج كما يرى ماركس .

إن منحنى التاريخ البشرى يسير متوازنا مع حركة الأديان ، فالدين علاقة بين الإنسان والوجود كله . أما القوى الاقتصادية فتخضع للفكرة الإنسانية ولا تخضعها كما يتصور الماركسيون .

وإنى لأتعجب من قوم لهم تاريخهم الممتد لآلاف السنين – منذ أن خلق الله آدم ومد البشرية بالرسل والأنبياء عليهم السلام – أتعجب من نهجهم لنفس منهج ماركس فى التفسير ، فى حين أن تاريخهم لم يخضع أبداً لهذا التفسير . ويكفى أن ندرس تاريخ تطور المجتمع المسلم القريب – منذ عهد الرسالة الأخيرة وصاحبها إمام المرسلين وخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام – لندرك أن التاريخ الإسلامى لم يرتبط فى تطوره بالعامل الاقتصادى . بمعنى أن وسائل الإنتاج فى تطورها واختلافها من عصر لآخر لم تغير أبداً من الشكل السياسي والاجتماعى للمجتمع الإسلامي . بل كان العامل الرئيسى فى رقى أو انحطاط المجتمع هو سمو أو تفسخ العلاقة بين أفراده وبين الله سبحانه وتعالى . هذه العلاقة هى التى حددت شكل المجتمع وأثرت فى تطوره ، يستوى فى ذلك المجتمع الزراعى أو الصناعى أو التجارى أو القبلى .

أفلا تكون لنا شخصيتنا المستقلة المتميزة ونحن أصحاب التاريخ الناطق بأكمل وأعظم صور الرقى البشرى ؟ !

سابعاً: وقد يكون من اللائق أن نقدم لأصحاب اليسار آخر الأسباب التى تدفعنا لرفض "ماديتهم التاريخية" . نقدم لهم ما قاله إنجلز بنفسه فى رسالة لصاحبه ستار لنبرج : " ماركس وإنجلز مسؤولان جزئيا عن حقيقة أنه فى بعض الأوقات قد أعطى أتباعنا أهمية للعامل الاقتصادى أكثرمما يستحق "(*).

وهكذا ننتهى من (المادية التاريخية) ليتبقى لنا جانبا هاما أرى أنه الحاسم فى رفضنا أو قبولنا للقوانين الماركسية .

إنه ولا شك جانب التطبيق . وهل يختلف اثنان فى أهمية دراسة التطبيق العملى لأى فكرة حتى نحكم بنجاحها أو فشلها؟!

التطبيق

والآن ماذا عن التطبيق فى الدول الاشتراكية؟ .

(*) من كتاب "الشيوعية" لكاريوهنت .

إن أول ما نصطدم به هو أسلوبهم " الثورى " فى حكم تلك البلاد. أسلوب " حمامات الدم "!.

نعم . حمامات الدم !.

إن الاتحاد السوفييتى وحده قتل وذبح وشرد أكثر من عشرين مليون مسلم – أكرر عشرين مليون ! – فى سبيل تحقيق رفاهية الإنسان !!.

وهل نتحدث عن مجازر الشيوعيين ضد المسلمين فى الصين ويوغسلافيا وسائر دول أوربا الشرقية ؟.

لقد سجل الشيخ محمد الغزالى فى كتابه القيم "الإسلام فى وجه الزحف الأحمر" الكثير من الحقائق مقرونة بالإحصاءات الرسمية عن " حمامات الدم " التى راح ضحيتها الملايين من المسلمين فى الدول الاشتراكية لمجرد أنهم (رجعيون لا يؤمنون بتعاليم ماركس أو ماوتسي تونج ، ويؤمنون بالله الواحد الأحد)!(*).

ولنا أن نتساءل هنا عن مدى تقبل الإنسانية لنظام قام

(*) صادر الحكم النصرى هذا الكتاب ومنع تداوله!!

على أشلاء الملايين ! . . وبأى حق يبيح الماركسيون لأنفسهم اعتقال وقتل وتشريد معارضيهم فى سبيل تحقيق حلم الشيوعية الزائف ؟ .

إن من سخرية القول أن يدعى " اليسار " مساندته لنضال الإنسان ضد استغلال الرأسمالية له ، فى حين أن هذا " اليسار " يلغي كلمة " الحرية " تماما من قواميس البلاد التى يحكمها !!

هذا من ناحية أسلوبهم فى الحكم والوصول إليه . أما عن تمسكهم بمبادئ ماركس . . . فإننا نرى العجب !.

لقد تراجع التطبيق عن الكثير من أساسيات هذا المبدأ ، حتى كاد أن يبدو شيئا جديداً مختلفاً تماما عن الماركسية كما صاغها ماركس .

ولعل أبرز ملامح هذا التراجع : السماح بالملكية الزراعية الخاصة – إقرار أسلوب الربا فى المعاملات المالية – الاعتراف بأهمية دور الأسرة فى تكوين المجتمع .

أما آخر هذه " التراجعات" فهو ما أقره المؤتمر الشيوعي العالمى فى٢٩ /٦/ ١٩٧٦ من الاعتراف بـ "القومية الشيوعية"

واستقلال الأحزاب الشيوعية فى أسلوبها ونهجها ، واختفاء عبارة " الدولة البروليتارية " من البيان الختامى للمؤتمر .

فماذا تبقى إذن من الشيوعية ؟ . إن الأمر يبدو كمن يدعو لنظام إسلامى لا يقوم على الزكاة وحكم الشورى !! .

فإذا ما واجهنا الماركسيين بهذه الحقيقة ، صاحوا على الفور: " ومن ذا الذى يقول إن الشيوعية قد طبقت فعلا فى بلاد الكتلة الشرقية ؟ إن ما يحدث لا يعدو أن يكون سوى محاولات فى الطريق إلى التطبيق" .

محاولات ؟.

أكثر من سبعين عاما . . محاولات ؟!! .

وكم "سبعون" أخرى ستمضى قبل أن ننعم بمجتمعكم الماركسي الأصيل ؟

وتتعجب – عزيزى القارئ – إذا ما لاحظت اختلاف اسم الدولة الأم " اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية " عن اسم الحزب الحاكم هناك – وهو الحزب الوحيد طبعا! – "الحزب الشيوعى" فإن سألتهم فسروا ذلك بأن كلمة "الاشتراكية " التى

توصف بها الدولة تعني أن المرحلة الحالية هى مرحلة تطبيق اشتراكى سابق على التطبيق الشيوعى ، وكلمة "الشيوعية" فى وصف الحزب تعنى أن الهدف النهائي للحزب هو تطبيق الشيوعية .

وما دام الأمر كذلك ، فقد كان المفروض أن تبدأ التجربة بتطبيق ما هو ممكن وتأجيل ما يتعذر تطبيقه فى هذه المرحلة. أما أن تتراجع ، وهى فى بدايتها ، وتخالف أساس المبدأ . . . فهذا ما لا نفهمه.

حقا. لقد بدءوا خطواتهم الأمامية بخطوة إلى الوراء !.

وبعد . ألا يحق لنا أن نتعجب من قوم لا يجدون فى أنفسهم حرجا وهم يؤكدون بكل ثقة واعتزاز أنهم "يساريون"؟!.

الواقع أن للقضية وجها آخر . فمن الثابت عمليا أن دعوة اليسار لا تنمو إلا فى مناخ الفوضى والاضطراب والفقر وتفاقم المشاكل التى يعجز النظام الحاكم عن حلها . وأحداث الأمس القريب فى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا تؤكد تماما هذه الحقيقة .

أما فى الدول المتخلفة – أو النامية على حد تعبيرنا المهذب ! – فإن فرصته فى النجاح تصبح أكثر من مجرد أمل يحلم بتحقيقه .ذلك أنه إذا كان " رأس المال" فى الدول الغنية يحمي الدولة من زحف التيار اليسارى ويحول دون توليه الحكم عن طريق الانتخابات ، فإن الفقر والديكتاتورية – سمة الدول النامية – يفتحان له الباب واسعا لتتسلل منه شعاراته التى سرعان ما تجذب إليها كل غافل وجاهل .

ونحن إذا ما تتبعنا ما تكتبه الأقلام اليسارية ، نجد أنها تركز دائما على المشاكل التى يعانى منها الشعب فى حياته اليومية ، ثم تسعى جاهدة إلى تفجير بركان الغضب والرفض الذي يتراكم فى ظل المعاناة والألم .

والأمر عند هذا الحد لا يستنكره أحد . فمن ذا الذي يرفض أن تكشف الأقلام الأخطاء والمساوئ ، وتعبر عن تطلعات الشعب لحياة أفضل وأكرم ؟

لكن سفه وقذارة اليسار تبدو فى عجزه دائما عن تقديم برنامج علمى مدروس للإصلاح. وهو يتعمد دائما الاكتفاء بإثارة

المشاعر لأن كل غايته ومناه أن تنتشر الفوضى وتتسع دائرة الرفض لمجرد الرفض . بل وتزداد معدلات الفقر والبؤس ... وبالتالى يقفز هو إلى الصفوف الأمامية رافعا شعاراته ... ممنيا الناس بمجتمع خيالى لا سبيل إلى تحقيقه!

شعارات اليسار ليست إلا وسيلة للسيطرة على طبقة العمال حتى إن مكنته من الحكم رد لها الجميل على الطريقة الشيوعية : استغلال ما بعده استغلال !!

هذه الحقيقة يشهد بها التفاوت الطبقي فى الدول الشيوعية والذي يفوق نظيره فى الدول الرأسمالية المستغلة . . فرغم بشاعة وقسوة النظام الرأسمالى ، لم نسمع عن رئيس دولة هوايته " جمع السيارات" كما نعلم عن رئيس دولة شيوعية كبرى !!(*) .

ومع أن ديكتاتورية الحكم فى الدول الشيوعية حقيقة

(*) بعد سقوط الاتحاد السوفييتي انكشف المستور الذى كان غائبا عن الكيثرين وتأكد للمخدوعين أن الحكم الديكتاتورى لا يقوم إلا على الفساد وسيطرة طبقة النصف فى المائة وكان يمثلها هناك أعضاء الحزب الشيوعى الذين عاشوا قياصرة وباقى الشعب كالأغنام! (الطبعة الثانية).

لا تخفى عن أحد ، فإن الجماهير الفقيرة تعلق أمانيها بدعاوى اليسار لأنها لا تملك ما تخسره إذا ماتحطمت هذه الأمانى . كما أن الإنسان وهو فى حالة الألم واليأس لا يبحث فيما وراء الشعارات ولا يجهد نفسه فى دراسة تاريخ أصحاب هذه الشعارات !.

إنه من العار علينا أن نعترف بأن المستقبل لليسار إذا ما استمر غياب الفكر الإسلامي عن الميدان . ولسوف يفيق المسلمون يوما ليفاجأوا بانتصار اليسار وهم منشغلون بقضايا التصوف ، والحلال والحرام فى أتفه فرعيات حياة الإنسان ..

نعم . لا تلوموا الفقير إذا ما انساق وراء اليسار . . فإن البطن الخاوية تستجيب لمن يدعوها للطعام أولا !!.

* * *

اليـمين

قبل أن نستعرض أساس النظام اليميني ، أود أولا أن نتحرر من الخلفيات التى رسخها اليسار فى ذهننا وفكرنا والتى تجعلنا ننفر من "اليمين" بمجرد ذكر اسمه ! ذلك أننا – كاتجاه إسلامي – حينما نرفض اليمين لا نرفضه فقط بسبب ارتباطه بحركة الاستعمار فى منطقتنا ، وإنما نرفضه لنفس الأسباب التى نرفض بها اليسار أيضا .

والواقع أن اليسار نجح بالفعل فى توسيع هوة الخلاف بيننا وبين اليمين . وساعده على ذلك انتشار روح الكراهية التى تولدت فى نفوسنا تجاه النظام الذي قامت على أساسه امبراطوريات الغرب الاستعمارية وبالتالى ارتبط رفضنا لليمين بصورته ووجهه الاستعمارى . وهذا خطأ . بل وفيه خطورة كبيرة على مستقبلنا الفكرى لأن من يرفض اليمين على هذا الأساس يعود فيقبله إذا ما تراجع – أى اليمين – عن سياسته الاستعمارية . . فلماذا يرفضه طالما انتفى سبب الرفض؟! .

لا . لا ينبغى أن ننظر القضية بهذا المنطق .

المسألة ليست استعمارا وتقدمية ورجعية .

وإذا كان اليمين يرتبط فى اذهاننا بصورته الاستعمارية ، فإن اليسار لا يختلف عنه إن لم يكن أسوأ فى أساليبه .

كما أن دراسة النظامين من الناحية النظرية والتطبيقية تكشف لنا أن اليمين أكثر تقدمية من اليسار !

هذا إن كانت (التقدمية) تعنى حياة أكثر رفاهية وسعادة للإنسان .

إذن . نحن لا نساير اليسار فى نظرته لليمين على أنه استعمارى رجعى (*) وكل من يرفضه على هذا الأساس سيعود فيقبله بعد أن يكتشف أن اليسار أكثر رجعية واستغلالا ... ما دام الأمر منحصراً عنده فى المفاضلة بين اليسار واليمين!

هذه مقدمة لا بد منها ونحن بصدد دراسة النظام الرأسمالى

(*) المضحك فى هذا الأمر أن كلمة " اليمين الرجعى " كانت وماتزال تطلق على الإسلام حسب تصنيف " التقدميين " من أهل الفكر!!

حتى ننفى عن أنفسنا تهمة التحيز ضد اليمين بسبب مواقفه الاستعمارية .

ولنمضى الآن مع هذا النظام لنرى على أي أساس يقوم . . .

فى الواقع لا يوجد مفكر واحد تنسب إليه "الفكرة الرأسمالية "كما هو الحال فى الماركسية . ويمكننا القول بأن النظام الرأسمالى قد تبلور عقب حوادث وفلسفات كثيرة ميزت القارة الأوربية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ونذكر من هؤلاء الفلاسفة والمفكرين : ديكارت – بيكون – كوميت – وليم جيمس – فولتير – آدم سميث . . .وهم وإن اختلفوا فى آرائهم فقد اتفقوا على رفضهم للدين – المسيحي طبعا – وتقديسهم للعقل.

وقامت الثورة الفرنسية سنة (١٧٨٩م) لتبدأ بها الانطلاقة الأولى نحو قيام النظام الرأسمالى . ولعل فى شعارها " اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس " ما يحدد ملامح اتجاهها .

ومع توالى الاكتشافات العلمية ، والتطور السريع فى شكل الآلة ووسائل الإنتاج ، وانحسار دور الكنيسة وتراجعها بسقوط

عهد الإقطاع والأنظمة الملكية . . . بدأ النظام الرأسمالى فى النمو رافعا شعار : الحرية المطلقة وفصل الدين عن الدولة ، ومعتمدا على استثمار المال بواسطة الربا .

ونرى هذا امبدأ واضحا فى عبارة آدم سميث الشهيرة " دعه يعمل – دعه يسير "(*) .

لكن لم يحدث أبدا أن قدمت الرأسمالية للإنسان تصورا شاملا عن الحياة . فهى فى فصلها للدين من الدولة نسبت للإنسان كل شيء : القانون – الأخلاق – النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وبالتالى سيطر رأس المال على مقدرات البشر وتحكم فى حاضرهم ومستقبلهم .

يقول " مارشال " فى كتابه " أصول علم الاقتصاد " : " إن الإنسان يتأثر بأمرين رئيسيين فى حياته الدنيا : أموره الاقتصادية، وعقيدته الدينية ، ولكنه أشد تأثرا بالاقتصاد منه بالعقيدة ، إذ يكاد خلق المرء يتكيف بعمله اليومي، وما يحققه من ربح مادى " .

(*) يرى بعض المتخصصين أن هذه العبارة ليست من قول سميث فإن صح ذلك فهى من الأخطاء الشائعة .

إننا ، ولا شك ، نختلف معه تماماً فى تقييمه لدور الدين وأهميته . وفى نفس الوقت ، نتفق معه على أن الدين إذا ما عجز عن تقديم تصور شامل للحياة ترتاح له النفس البشرية وتطمئن إليه وتحقق من خلاله واقعاً مادياً يحمل فى طياته السعادة والرفاهية للإنسان فإن العامل الإقتصادي يقفز فى هذه الحالة إلى المرتبة الأولى ويصبح ولا شك هو الدافع الرئيسى الأول فى حركة الإنسان .

وهذا ما حدث بالضبط فى أوربا . فقد كان للثورة الصناعية التى أعقبت عصر النهضة ، الأثر فى تعميق الكثير من المفاهيم المادية ، واستحداث مثل عليا بعيدة عن المسيحية التى ناصبت العلم العداء واستبدت بالعقول فقيدتها بأشد القيود ووقفت بجانب استرقاق القوى للضعيف والغنى للفقير .

وهكذا قامت الرأسمالية على أساس الدعوة إلى تحرير الإنسان وتقديس "العقل" .

لكن ما هى الضوابط التى تحكم الرأسمالية ؟ .

لا شيء . سوى المنفعة ! .

لقد أصبح فى عرف النظام الرأسمالى أنه لا يوجد ما يفصل بين الخير والشر سوى وجود المنفعة أو انعدامها . لم تعد لكلمتى "الحلال والحرام" أى معنى فى ظل الحياة الرأسمالية . وإذا كان بعض الشباب – ممن سافروا إلى أوربا – يفتنهم ذلك النظام الأخلاقى الذي يسود العلاقات هناك ، فإن ذلك لم يكن هدفه فى بدايته سوى تحقيق مكسب مادى من ورائه . إن صاحب العمل الذي يهتم كثيرا بسلامة وصحة عماله ، لا يدفعه لذلك أساسا إلا الرغبة فى الحصول على إنتاج أوفر وأجود ! .

ومع ذلك ، فليس هذا موضوعنا . ونحن لا نريد أن نتفرغ فى تحليل بعض المظاهر الثانوية فى الحياة الرأسمالية ، وإنما يهمنا أن نناقش الأسس التى يقوم عليها النظام .ومن الثابت أن أحداً ، مهما بلغت به درجة رفض أو قبول النظام الرأسمالى ، لا يمكنه أن ينكر دعامتين رئيسيتين لا يقوم هذا النظام إلا بهما : الحرية والربا .ولكن اسمحوا لى أن نتعرض أولا – ولو بإيجاز شديد – لقضية "فصل الدين عن الدولة" ودور الكنيسة الآن فى الحياة الغربية .

لقد كان من الطبيعى أن يقر مبدأ "فصل الدين عن الدولة"

فى أوربا وأمريكا ، ذلك أن المسيحية لا تتضمن أية أحكام سياسية أو اقتصادية . غير أنه من المؤسف أن يمتد العداء للكنيسة ليشمل الثوابت الاجتماعية وقواعد المعاملات التى جاءت بها المسيحية .

وإذا كانت الرأسمالية قد حققت للإنسان إشباعا ماديا غزيراً ، بغض النظر عن خطأ أساسها الاقتصادى، والذى سيتضح لنا بإذن الله عند حديثنا عن الربا ، فإن نزوعها عن الاهتمام بالقيم الروحية (*) قد حطم الإنسان الذى يعيش فى كنفها. ولنا فى إحصائيات الانتحار فى السويد خير شاهد على ذلك.

هذا جانب . أما الجانب الآخر فأهم منه وأخطر . وأعنى به دور الكنيسة الآن فى الساحة السياسية .

إن الكثيرين فى غفلة منهم عن طبيعة الصراع بيننا وبين الغرب ، يظنون أن روح الغرب الصليبية قد خمدت جذوتها فى

(*) من أخبث الدعوات التى ينادى بها اليسار واليمين – على السواء – مايسمى بالإيمان "بالقيم الروحية" وكأن الإسلام لا يهتم إلا بالروح فقط !

وهم بذلك يهدفون إلى عزل الإسلام تماما عن الجانب المادى من حياة الإنسان وذلك بتعطيل أحكامه السياسية والاقتصادية والإيهام بأنه لا يمثل سوى مجموعة من " القيم الروحية" !!

ظل النظام العلمانى السائد هناك. وهم لذلك يترددون فى تسمية دول الغرب بالدول المسيحية لمجرد استفحال تيار الإلحاد بين شعوبها.

والحقيقة أن حكومات تلك الدول مازلت ترتبط – ارتباطا قد يقوى ويضعف – بالكنيسة الغربية. وتكاد لا تخلو دولة غربية من حزب مسيحى يسعى للحكم، بل وأحيانا يحكم بالفعل كما حدث فى ألمانيا وإيطاليا وغيرهما. وكثيرا ما تتدخل الكنيسة فى شئون الحكم كما حدث فى الانتخابات الإيطالية الأخيرة.

ومازالت المظاهر الشكلية تربط الحاكم – رسميا – بالكنيسة كما لاحظنا فى احتفالات الولايات المتحدة بعيد استقلالها حيث افتتحها رئيسها "فورد" بالصلاة فى الكنيسة(*).

(*) هذا ما كان واضحا فى سبعينيات القرن العشرين – وقت نشر الطبعة الأولى من الكتاب – أما اليوم وبعد ما مر بنا من أحداث بداية بتبرئة بابا الفاتيكان لليهود من دم المسيح وانتهاء بإعلان بوش بداية الحرب الصليبية الجديدة مع غزوه للعراق، فإنه لم يعد هناك شك فى تضخم دور الكنيسة الغربية فى الحياة السياسية!

ويبقى بعد ذلك ، وقبله ، السؤال الذي أوجهه لكل غافل عن حقيقة الأمر : من الذي يمول البعثات التبشيرية فى كافة أنحاء العالم؟

سؤال قد ينبهنا . . وما أحرج موقفنا إذا لم ننتبه!!.

نعود لحديثنا عن دعامتى النظام الرأسمالى : الحرية والربا .

ونبدأ بالحرية لننتهى منها سريعاً لأننا سوف نتوقف طويلا عند "الربا" !

الحريـة

كلمة تسحر الألباب ويسيل لها اللعاب.

هى أغلى ما يملكه الإنسان .

وهى إن فقدها ،فقد بعدها كل شيىء!

واليوم ترفع دول الغرب الرأسمالية شعار الحرية ، وتصبو أمانى الشباب نحو الدولة الأم . . أمريكا ، حيث يرتفع شامخاً هناك تمثال الحرية يفتن كل متجه إليها.

وتصبح الحرية هى الورقه الرابحة التى يلوح بها النظام

الرأسمالى فى حلبة المنافسة . وحينما يحيا الإنسان فى الدول النامية والشيوعية فاقدا لكل صور الحرية ، تصبح الحرية فى النظام الرأسمالى هى أسمى ما يتطلع إليه الإنسان فى أيامنا هذه .

ونحن لا ننكر أن فى النظام الرأسمالى من الحرية ما يفوق ما فى الأنظمة الأخرى السائدة ، وخاصة فى غياب التطبيق الإسلامى فيما يسمى بالدول الإسلامية اليوم.

هذا جانب من الحقيقة .. لكنها ليست الحقيقة كاملة .

بل إنها حقيقة واهية تخدع من يؤمن بها وتزيف له الواقع البشع الذي يعيشه فى ظل قيد لا يتراءى له ولا يتلمسه لأن الدائرة قد ازدادت اتساعا بحيث يكاد المرء لا يتحسس أبعادها فيظن أنها لا تطوقه وأنه بحريته يعيش ويحيا.

ونحن لا نريد أن نتناول مظاهر الحرية فى المجتمع الرأسمالى لأننا فى الواقع نهتم – تمشيا مع منهجنا فى هذا الكتاب – بالمعنى الفلسفى الذي تستند إليه المفاهيم التى نتعرض لها ، فإن فى ذلك ما يعيينا عن التشتت فى البحث والحديث . غير أننى أود أن

نقف قليلا عند أهم مظاهر هذه الحرية والتى تميز نظم الحكم السياسي فيما يسمى بالديمقراطية الغربية.

إن من أهم سمات هذا النظام حرية الاختيار المتاحة للناخبين فى انتخابات الرئاسة ، حيث يتقدم كل حزب بمرشحه ويختار الشعب من يراه أكثر صلاحية للحكم.

أسلوب رائع ولا شك . . وأروع ما فيه أن حرية الترشيح مكفولة للجميع

لا فرق بين مرشح وآخر إلا بـ . . .

هل نقول بـ " التقوى " كما فى الإسلام؟.

لا بل هى بـ " الغنى والفقر " . .

نعم . لا فرق عندهم بين مرشح وآخر إلا بمقدار ثروته وما يمتلكه من مال أو ما يستطيع أن يجمعه من مال بطريق مشروع أو غير مشروع .

إن الدعاية الانتخابية فى الولايات المتحدة تكلف – على أقل تقدير – عشرين مليون دولار. فأنت إذن حر فى أن ترشح

نفسك ، لكن عليك أولا أن تكون من أصحاب الملايين! فإن لم تكن كذلك فالبديل هو الخضوع لتوجيهات ومطالب أصحاب رؤوس الأموال الذين يتحكمون فى العملية الانتخابية.

إنها حرية "رأس المال" .

نعم هذا هو مفهوم الحرية فى النظام الرأسمالى اليمينى.

المال هو السيد . . والإنسان لا قيمة له بدون المال.

واليوم يعرف الناس فى الولايات المتحدة بمقدار ثروتهم.

هل تعرف " فلان "؟.

نعم . إنه يملك " كذا " مليون دولار !!(*).

هذا مجرد مثال . ونحن لا نهدف إلى ملء صفحات الكتاب بالأمثلة فلنعد إذن لدراسة الأساس الفلسفى الذي يحدد مفهوم الحرية فى النظام الرأسمالى .

علمنا أن الفكرة الرئيسية التى تقوم عليها الرأسمالية هى (تقديس العقل) واعتباره القوة المدبرة الوحيدة التى تحكم حركة

(*) للأسف أصبح هذا هو حالنا اليوم فى منطقتنا العربية.

الحياة. لذلك فإن النظرة الرأسمالية للحياة هى نظرة مادية بحتة تتفق تماماً والفكر المادى الماركسي وإن اختلفت معه فى تفسير نشأة المادة وعلاقاتها بالفكر.

وعندما نعتقد أن الإنسان هو "السيد" فإن الحرية المطلقة تصبح دعامة رئيسية لإقامة النظام الذي يؤمن بهذا الاعتقاد. إن مجرد إحساس الإنسان بقدرته على أن يفعل ما يشاء.. على أن يتحرر من أى ارتباط بقوة أكبر منه تهيمن على هذا الكون، بل وعندما ينكر وجود هذه القوة أصلا، لا يتبقي له بعد ذلك إلا تأكيد حريته فى تدبير حياته كما يحلو له.

والناظر فى المجتمعات البشرية اليوم يتضح له أن الإنسان حينما أراد أن يتحرر من ارتباطه بخالقه، استبدل به ارتباطا جرده من إنسانيته وكرامته وأحاطه بقيود حرره الله منها. تتنوع وتختلف أشكال هذه القيود من حزب.. إلى دولة.. إلى أفراد تُعبد من دون الله. وأخيراً ظهرت فكرة الرأسمالية لتقيم من "رأس المال" إلها جديدا وسيدا يتحكم فى الحزب والدولة والأفراد.

هذا فى حين أن الحرية فى الإسلام ترتبط بمفهوم "العبودية لله" فإذا ما انفك هذا الارتباط .. هل يعنى ذلك انطلاق الحرية بلا أى قيد؟ لا . ذلك أنها لا تقوى على الاستمرار بدون ارتباط ما.

فهى ترتبط فى النظام الماركسي بـ " الحزب" .

وترتبط فى النظام الرأسمالى بـ " رأس المال" .

إن مفاهيم الإنسان عامة – ومنها الحرية – لا تنفصل أبداً عن مفهومه لشامل المتكامل عن " الخَلق" فالإنسان المادى ينسب إلى نفسه مفهوم الحرية ويظن أنه قادر على أن يجعلها حرية مطلقة . فى حين أن الإنسان المؤمن بوجود خالق مدبر للحياة ، يستحيل عليه أن يتصور إمكانية أن تكون الحرية مطلقة .

بل إن فكرة " الإيمان بالله" لا تجتمع أبداً مع فكرة " الحرية المطلقة" .

كيف؟.

لقد خلق الله الحياة وخلقنا لكى نعيشها وفق قوانين تنظم حركتها. هذه القوانين لا نملك أن نغيرها. وكل ما استطاعه

الإنسان في تاريخه الطويل هو اكتشافه لهذه القوانين فقط والاستفادة من علاقاتها بعضها ببعض.

هذه الحقيقة تنفى تماماً إمكانية أن يعيش الإنسان في ظل حرية مطلقة. بل إن هذه الفكرة لا تجد لها فرصة لمجرد مناقشتها إلا إذا استطاع الإنسان أن يتحرر أولا من خضوعه للقوانين التى تحكم الحياة من حوله. كذلك، فإن الإنسان المؤمن بالله يؤمن بيوم الحساب. والله سيحاسبنا على أساس قوانينه جل شأنه، فكيف نتصور أن نحيا بقوانين من وضعنا – ومنها قانون الحرية المطلقة – ثم يحاسبنا الله على أساس قوانينه هو ؟.

لا مفر إذن من الاختيار بين الفكرتين:

إما الإيمان بالله وقوانينه الثابتة.

وإما الإيمان بالعقل وقوانينه المتغيرة.

وهذا الذي يؤمن بالحرية المطلقة في ظل النظام الرأسمالي يتجرد في الواقع من إيمانه بالله لأنه يعيش بذلك وفق هواه. وأى معنى إذن للإيمان إذا ما ارتبط بمفهوم العبودية لغير الله؟

فإذا ما تجاوزنا هذا المفهوم الأساسي للحرية لنبحث في حقل الواقع ... ماذا نجد؟.

إن الواقع يشير إلى أن حياة الإنسان في ظل الحرية المطلقة – وإن كانت في حقيقتها مقيدة برأس المال – قد آلت إلى جحيم وشقاء يولدان في نفسه أعنف وأقسى الأمراض العصبية والنفسية.

وكلما ازدادت جرعة الحرية ازداد معها اضطراب الإنسان وقلقه. وهي نتيجة حتمية منطقية، لأن الإنسان في هذه الحالة يفقد الاطمئنان النفسي الذي يجده في ارتباطه بقوانين خالقه الثابتة، ومن ثَمَّ يجد نفسه مضطراً في كل لحظة إلى حسم قضية الاختيار في كل جزئية من حياته بدون بوصلة تهديه.

دوامة عنيفة تطحن النفس البشرية وتخضعها لعقل محدود يعجز في أغلب الأحيان عن تحديد الاختيار السليم.

ولا شك أن المخططين لهذا النظام والمسيطرين على زمام أمره هم في غاية من الذكاء والدهاء لأنهم كلما سمحوا للإنسان بقسط أكبر من الحرية، كلما سهل لهم السيطرة عليه وإخضاعه لنفوذهم ومخططاتهم.

السم في مذاق حلو!.

هذا ما يحدث بالضبط الآن في العالم الغربي.

الإنسان سكران بجرعات الحرية التي يتناولها يوما بعد يوم،

ومع اقتراب النهاية يفيق على صرخات العذاب النفسي ليكتشف أن حياته قد مضت بلا أي معنى أو هدف .

انحرافات وانتحارات واكتئابات ... هى أبرز سمات الحياة العصرية .

إن النفس البشرية اليوم ضائعة .. تائهة فى خضم الحرية المطلقة وهى لن تهدأ و تطمئن إلا حينما تعود إلى الحظيرة الإلهية حيث تنعم بالحرية الحقيقية فى تقديسها للخالق لا فى تقديسها للمخلوق .

وإذا كانت الدعوة إلى تحرير الإنسان وتقديس العقل قد ظهرت فى بدايتها كرد فعل لما عاناه الإنسان من استبداد واضطهاد فى ظل سيطرة الكنيسة الغربية وعجزها عن تقديم تفسير وتصور شامل للحياة تطمئن إليه النفس البشرية، فإن الانقلاب الصناعى الذي صاحب هذه الدعوة قد أخضعها لنفوذ "رأس المال" بحيث أصبحت من أهم الدعائم التى يستند إليها النظام الرأسمالى فى استعباده للإنسان .

وهكذا تم لفلاسفة هذا النظام – وغالبيتهم من اليهود – السيطرة على الإنسان بوجهى العملة الرأسمالية : الحرية المطلقة

والربا . وما أسهل السيطرة على إنسان تحرر من قدرته على السيطرة على نفسه!

لقد أدرك زعماء هذا النظام هذه الحقيقة البشرية فسعوا إلى تمكين الإنسان من الانطلاق بلا حدود أو ضوابط ، وعمدوا إلى تفجير وتفتيت الروابط التى تحكم نزعات الإنسان وغرائزه باسم الحرية!

حرية مطلقة فى العلاقات الجنسية.

حرية مطلقة فى التملك واستثمار المال.

حرية مطلقة فى التحلل من كافة الاعتبارات الخلقية.

حرية مطلقة فى التصرف وفق هوى الإنسان .

حرية مطلقة فى تحقيق السعادة على حساب شقاء الآخرين.

وهكذا سقط الإنسان فى قبضتهم لأنه لم يعد يقوى على المقاومة وأول ما يخضع له فى شباك النظام الرأسمالى خضوعه لنفوذ " رأس المال".

* * *

الربـــا

الركيزة الاقتصادية للنظام الرأسمالى

ولأن الاقتصاد كان ، وسيظل ، العامل الرئيسي المؤثر فى كافة أوجه الحياة لأى نظام ، فإننا لا نتصور أن يقوم النظام الرأسمالي بدون الربا . فالمسألة إذن ليست مجرد صورة لشكل للتعامل النقدى ، وإنما ينسج الربا فى النظام الرأسمالى الخيوط الرئيسية التي تحدد القيم الاجتماعية والسياسية والأخلاقية فى هذا النظام .

والتعامل بالربا ، وكما سيتضح لنا بعد قليل ، يسقط الإنسان فى هاوية الشرك الخفي ويشوه فى ذهنه فكرة التوحيد والعبودية لله . فالموضوع إذن جد خطير . ويكفي أن ندرك أن القرآن لم يتوعد الناس بحرب من الله إلا فى الربا ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

ومع هذا، فنحن نرى المسلم اليوم لا يجد أي حرج من إعلان موافقته وتأييده للنظام المصرفى الذي يقوم على لربا .

وأغلب الظن أنه ما يفعل ذلك إلا لعجزه عن تصور حقيقة المفهوم العلمي للربا بعد أن شوهت الحقائق أمامه عن طريق الكثير من أدعياء العلم وذيول السلطان الذين لا تعوزهم الحجة دائما فى تبرير سياسة الحاكم حتى ولو دفعهم ذلك إلى تحليل الحرام. وأى حرام؟.. الحرام الذي يوقعنا فى حرب مع الله ورسوله!.

إن حجة هؤلاء أن الربا الذي حرمه الله هو ("الأضعاف المضاعفة) كما أنهم يدعون أن الربا فى النظام المصرفى الجديد ليس هو ربا المرابين فى الزمن القديم لأنه يخلو – على حد ظنهم – من الاستغلال والاحتكار.

هذا ما يقولونه ويدعونه ، وهو ما يدفعنا إلى مراجعة سريعة لتاريخ إنشاء المصارف لنرى إن كانت حقا خالية من الاستغلال والاحتكار أم أنها قمة نتاج التفكير الشيطانى للسيطرة على البشر واستغلالهم عن طريق الربا .

وبداية ، أعتقد أننا نتفق جميعا على بشاعة جريمة الربا

كما كان فى الزمن القديم ، وكما يحدث بين بعض الأفراد اليوم . وهذا واضح فى مختلف التشريعات الدينية(*) . فيتبقى بعدئذ أن نناقش مدى حرمة المعاملات المالية فى المصرف الحديث، أو ما يسمى بالفائدة.

ولكي نناقش مسألة (المصرف الحديث) علينا أولا أن نبحث فى أصل الفكرة .. وكيف بدأت.

كانت البداية فى إصدار سندات يصرح فيها لحاملها بأن له كذا وكذا من الذهب وديعة عند (الصيرفى) الذي أصدر هذا

(*) رغم أن النصوص اليهودية والمسيحية صريحة تماما فى تحريمها للربا إلا أننا نجد فى التوراة المحرفة ما يبيح لليهودى أخذ الربا من غير اليهودى ، كما يشير الدكتور محمد عبدالله دراز فى كتابة " دراسات إسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية " ويقول إن النظرة المسيحية التى تقر تحريم الربا قد بدأت تفقد مناعتها شيئا فشيئا منذ عصر النهضة عندما بدأ بعض الملوك والرؤساء الدينيين يجترئون على انتهاك هذا التحريم علنا كما فعل " لويس الرابع عشر " و " البابا التاسع " أما الضربة القاضية التى وجهت إلى هذه النظرة الدينية فقد حملتها إليها الثورة الفرنسية حيث احتضنت المذهب المعارض وجعلته مبدأ رسميا منذ قررت الجمعية العمومية فى الأمر الصادر بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٧٨٩ أنه يجوز التعامل بالربا فى حدود خاصة يعينها القانون.

السند . وكان ذلك بهدف تسهيل التبادل بين الناس فلم يعد الشخص بحاجة إلى استرداد ذهبه – المودع لدى الصيرفي – إلا إذا كان في حاجة إلى الذهب لذاته . أما إذا كان يهدف إلى شراء أو بيع فإن السند الورقي يحل محل الذهب في إتمام عملية التبادل .

ثم ظهر للصيارفة بالتجربة أن الذين يودعون أموالهم لا يستردونها منهم إلا بنسبة زهيدة لا تتجاوز في معظم الأحيان ١٠٪ وأن الـ ٩٠٪ تبقى محفوظة لديهم لمدة طويلة . لذلك رأى هؤلاء الصيارفة أن ينتفعوا بما هو مودع لديهم فأخذوا في إقراضه للناس بالربا . وهم بذلك ارتكبوا جريمتين : التصرف في أمانة ائتمنهم المودع عليها ، والحصول على نسبة (الربا) التي لا يستحقونها لأنهم ما بذلوا فيها مجهودا أو تعرضوا لمخاطرة .

ومع ذلك ، لم يكتفوا بهذا الاستغلال البشع الصريح ، وإنما خطوا خطوة غاية في السوء والقذارة في مخططهم للسيطرة الكاملة على مقدرات البشر ، فأصدروا سندات ورقية إضافية على قوة الذهب الموجود في صناديقهم وأخذوا في إقراضها للناس

بالربا. ولبيان مدى خطورة هذه الجريمة نفترض أن شخصاً أودع لدى الصيرفي من الذهب ما قيمته عشر جنيهات مثلا ، فإن الصيرفي يصدر عشرات سندات يصرح فى كل واحد منها بأن من يحمله يمتلك من الذهب ما قيمته عشر جنيهات . والذي يحدث أنه يسلم أحد هذه السندات العشرة – والمكافئة فعلا لقيمة الذهب – إلى المودع ويقرض التسعة الباقية – والتى لا أساس لها إطلاقا من الذهب – إلى الناس بفائدة قد تصل إلى ١٠و١٥٪ .

هذ خداع سافر لا شبهة فيه وبهذا الخداع خلق الصيارفة ٩٠٪ من المال لأنفسهم بصورة عملة لا تمثل أية قيمة إنتاجية على الإطلاق .

هكذا بدأ الأمر ثم تطور إلى شكل يبدو فى مظهره كأنه أفضل السبل لاستثمار المال، فى حين أنه فى حقيقته أبشع السبل لاستغلال الإنسان والاستفادة من ثمرة جهده وإنتاجه دون أن يدرى .

هذا التنظيم هو ما يعرف بالمصرف الحديث . عندما اجتمع نفر من الصيارفة وقرروا تنظيم عملهم الشيطانى وتوحيد

جهودهم فى إنشاء "بنوك" يسيطرون بها على المعاملات المالية فى العالم كله. ولعله لا يخفى على أحد أن أصحاب معظم البنوك العالمية الكبرى هم من الأسر اليهودية العريقة فى مجال الربا والاستغلال والاحتكار !.

وقد يظن غالبية الناس أن البنك يقوم باستثمار المال ومنح المودعين نسبة من الربح . لكن الواقع أن وظيفة البنك الرئيسية هو قبول المال من المودع بسعر رخيص ثم إقراضه للمستثمر بسعر مرتفع .

ومن هنا نصل إلى جوهر المشكلة والذي يكمن فى شكل وأسلوب إتمام عملية التبادل . فالأصل فى موضوع الشراء والبيع ، والاقتصاد عامة ، هو البحث فى كيفية إتمام عملية التبادل. فكلما ازدادت سرعة عجلة التبادل ازدادت بالتالى سرعة عجلة الإنتاج.

والقوانين الاقتصادية فى الأنظمة الثلاثة : الاشتراكية والرأسمالية والإسلام تختلف تبعا لاختلاف مفهوم كل منها عن كيفية إتمام عملية التبادل خلال الدورة الإنتاجية . وكذا مفهومها عن النقود التى هى وسيلة إتمام هذا التبادل.

ومسألة النقود – وكما يقرر رجال الاقتصاد – من أعقد المسائل وأصعبها على الفهم . ورغم صعوبة تناول هذا الموضوع بالنسبة لكاتب غير متخصص وقراء غير متخصصين فإنني سأحاول بإذن الله – مستعينا بآراء وكتب الخبير الاقتصادي الكبير: الدكتور محمود أبو السعود – أن أبسط على مائدة البحث أهم الأسس التى نحتاج إليها لفهم هذا الموضوع نظرا لأهميته وخطورته فى إثبات الضرر البالغ الذي يقع على البشرية من جراء تعاملها بالربا.

ولكى ندرك مفهوم عملية التبادل ، نفترض مجتمعا مكون من اثنين وكل منهما ينتج سلعة معينة . ولنقل أن أحدهما ينتج رغيفاً والآخر ثوبا. من الواضح أن كل منتج لن يستفيد بما أنتجه إلا بمقدار ما يتبادله من فائض إنتاجه مع الآخر . وكما ذكرنا من قبل فإن وسيلة إتمام هذا التبادل هى النقود . فإذا افترضنا أن كلا منهما ينتج وحدتين من إنتاجه ، نجد أن صاحب الرغيف يدفع لصاحب الثوب ثمن شراء الثوب الفائض عنده وبذلك يمتلك ثوبا بجانب الرغيفين اللذين ينتجهما . ولكي تتم عملية التبادل يرد

صاحب الثوب النقود لصاحب الرغيف ثمنا للرغيف الذي يبتاعه منه وبذلك يمتلك هو الآخر ثوبا ورغيفا.

لكن ما الذي يحدث لو أن صاحب الثوب – وبعد أن باع الثوب الفائض لديه – رفض أن يشترى الرغيف ؟ هنا تصبح عملية التبادل غير كاملة لأنه قد تم البيع ولم يتم الشراء . وفى هذه الحالة نجد أن صاحب الرغيف سيضطر للبحث عن مصدر آخر للمال بعد أن كان مطمئنا إلى استرداد ماله وقت أن يشترى صاحب الثوب الرغيف الزائد عنده . والذي يحدث فى الواقع أن صاحب الثوب يودع نقوده فى البنك . فإذا ما لجأ صاحب الرغيف للبنك لاقتراض ما يحتاجه من نقود – والتى هى أصلا نقوده ! – يرفض البنك إقراضه إلا بالربا!!

من الخاسر ؟ ... كلا المنتجين .

ومن الرابح الوحيد ؟ ... البنك .

ما مجهود البنك فى هذه العملية ؟ .. لا شيء !!.

ليس هذا كلاماً نظريًا. وإنما هو الواقع الذي نعيشه فعلا. وما افتراضنا لهذا المجتمع الصغير إلا لمجرد توضيح المسألة.

والمشكلة – كما يقول الدكتور محمود أبو السعود – "نشأت من عدم فهم وظائف النقود ، وكثير من الاقتصاديين يعرفون النقود بوظائفها ، ولكن هذه الوظائف صفات أضفيناها نحن عليها ، وليست كلها مستقيمة مع حقيقة ما جعلت النقود من أجله ، فالنقود إنما وجدت لتمكين الأفراد من تبادل فائض إنتاجهم بفائض إنتاج الآخرين وللتغليب على نقائص المبادلة العينية ،وأن ما عدا ذلك فهو من خيال الناس"

إذن فالمشكلة كما هو واضح الآن تكمن فى كيفية إتمام عملية التبادل . وإذا كان النظام الاقتصادي الإسلامي يتفق مع النظامين الاشتراكى والرأسمالى فى توسيط النقود لإتمام التبادل ، فإنه يختلف عنهما فى تصوره وفهمه للنقود . فالإسلام يخضع النقود لقانون التناقص الذي تخضع له سائر مخلوقات الله ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ** ﴾ وذلك عن طريق فرض الزكاة وفرض ضريبة على رأس المال المكتنز. فى حين أن النظام الرأسمالى يسمح للنقود بأن تتزايد بدون جهد أو عمل مبذول . وملوك البنوك فى النظام الرأسمالى يستطيعون

فى أية لحظة أن يرفعوا من قيمة وحدة النقد عن طريق سحب الأموال واختزانها وفرض الفائدة الربوية على كافة أوجه النشاط الاقتصادي ! وبذلك اعتبرت النقود فى النظام الرأسمالى " مخزنا للقيمة " وأصبحت سلعة تطلب لذاتها ، وهذا وهم باطل لأن النقود إذا ما تجردت من صفتها كوسيط للتبادل لن تفيد مالكها بشيء!.

لذلك فإن الإسلام لا يرى فى النقود إلا كونها مجرد وسيط للتبادل فقط ، وهو – أى الإسلام – يجسد هذا المفهوم عن طريق قانونين رئيسيين : فرض الزكاة وتحريم اكتناز المال . وسوف نرى بعد قليل أن الاقتصاد الإسلامى بهذين القانونين يزيد من سرعة تداول النقود وبالتالى سرعة إشباع الناس لرغباتهم والاستفادة من فائض الإنتاج ، كما أنه بذلك يحمي المجموع من أن يتحكم فيه "رأس المال" ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[الحشر: ٧]

قد يستوقفنا من يقول – وله الحق فى هذا – : "وهل خفي هذا الأمر على رجال الاقتصاد فى النظام الرأسمالى" ؟.

بالطبع لا . لكن دعنا نضيف : وهل لا يخفى على قادة

هذا النظام مضار مظاهر الانحلال الذى تقدمه مختلف أجهزة الإعلام من سينما ومسرح وتليفزيون؟!

السؤال إذن لا يطرح هكذا . فالواقع أن " حزب الشيطان " الحاكم فى ظل النظام الرأسمالى – وكذا الاشتراكي – لا يهمه إلا إخضاع البشرية لعبودية المال والفرد ، وإلا فالبديل هو عبودية الإنسان لله . . . وهو ما يخشونه!

وبالرغم من سيطرة أتباع الشيطان على مقدرات البشر فى النظام الرأسمالى ، فإن فئة قليلة من الاقتصاديين المعاصرين تجرأت على مهاجمة "الفائدة" وإبراز أبعاد ضررها وفسادها. لكنه الحق بدون قوة تحميه ! هذا ، رغم أن حديثهم ونظرياتهم تستند إلى منطق علمي صحيح.

فهذا " دكتور شاخت" مدير بنك الرايخ الألمانى سابقاً يقول: " إنه بعملية رياضية يتضح أن جميع المال فى الأرض صائر إلى عدد قليل جدا من المرابين . ذلك أن الدائن المرابى يربح دائما فى كل عملية ، بينما المدين معرض للربح والخسارة ، ومن ثَمَّ فإن المال كله فى النهاية لابد – بالحساب الرياضي – أن يصير إلى

الذى يربح دائما " ! وهذه النظرية فى طريقها للتحقق الكامل . فإن معظم مال الأرض الآن يملكه – ملكا حقيقيا – بضعة ألوف ، أما جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك ، والعمال وغيرهم ، فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال ، ويجني ثمرة كدهم أولئك الألوف (*).

وقد ظهرت فى الآونة الأخيرة عدة أبحاث فى أوربا وأمريكا تؤكد على أن السبيل الوحيد لإنقاذ النظام الرأسمالى من الانهيار هو جعل سعر الفائدة "صفرا" ! (*).

ويؤكد هؤلاء الفلاسفة الاقتصاديون – وعلى رأسهم اللورد كينز – أنه ليس هناك أى مبرر للفائدة من الناحية العلمية .

وقد حدث فى شهر مارس عام ١٩٧٥ أن أصدرت الحكومة البريطانية سندات على الخزينة بدون فوائد ، وقد غطيت بالكامل فى ظرف أربع وعشرين ساعة .

(*) من كتاب " تفسير آيات الربا " لسيد قطب .

(*) هذا ما كتبته في الطبعة الأولى من الكتاب – عام ١٩٧٧ – وبعد واحد وثلاثين عاماً وفى محاولاتهم لمعالجة الأزمة المالية _عام ٢٠٠٨ – أكد الاقتصاديون الغربيون أنه لا مفر من خفض نسبة الفائدة لتقترب من الصفر!

هذا هو الواقع العلمي الذى يقرره كبار علماء الاقتصاد فى الغرب ، فإذا ما قال به عالم اقتصادى مسلم اتهموه بالرجعية والتخلف!.

ولعله من المفيد – ونحن فى سياق الاستشهاد بأقوال الاقتصاديين الغربيين – أن نقدم ما كتبه (جيزيل) فى كتابه "النظام الاقتصادى الطبيعى" إذ يقول : " (أ) و (ب) شخصان يفصل بينهما عاملا الزمن والمسافة ويريدا أن يتبادلا دقيقا بحديد ، وهما يريدان النقود من أجل تحقيق هذه الغاية ، والنقود فى حوزة ثالث (جـ).

إن (جـ) يستطيع أن يحقق التبادل المنشود فى الحال ، كما يستطيع أن يؤخره أويعرقله أو يمنعه أصلا ، ذلك أن نقوده تعطيه حرية اختيار الوقت الذي تتم فيه عملية التبادل ، ومن الواضح أن (جـ) سيطلب ثمنا لهذه القوة ، وأنه لا معدى لكل من (ا) و(ب) من دفع جزية على القمح والحديد ، إذ لو رفضا دفعها لانسحبت النقود من السوق ، ولاضطر كل منهما إلى الانسحاب تبعا لذلك دون إتمام البيع متحملين خسارة فادحة من جراء ذلك،

خسارة بوصفهما منتجين وأخرى بوصفهما مستهلكين ، فكمنتجين لابد من تناقص سلعتيهما ، وكمستهلكين لأنهما لم يحصلا على ما أرادا من السوق .

ولو كان (جـ) يملك مثلا منتجات أخرى غير ذهبه من شاى أو ملح أو غنم لحرمته خصائص هذه السلع – الوسيطة فى التبادل – من قوة إيقاف الطلب ، ولامتنع عليه فرض ضريبة على سائر المنتجات" .

والآن . كيف نقيم نظاما اقتصاديا خاليا من نقائص النظام الرأسمالى الربوى؟

نظام – كما يقول الدكتور أبو السعود – يتحقق فيه :

عدم إمساك النقد . . . فذلك اكتناز .

عدم تداول النقود بالنقود . . فذلك منهى عنه ومنطق سقيم .

عدم دفع فائدة للنقود . . فذلك ظلم وربا حرام .

ألا تكون للنقود قداسة . . . فذلك مدعاة للشرك الخفى .

ألا تكون النقود سيدة للإنسان . . فالإنسان سيد المخلوقات.

كيف السبيل إلى ذلك كله؟.

إن الدكتور محمود أبو السعود يطرح – استنادا لأحكام الإسلام – فكرة " النقود المُزكّاة " . وهى نقود لا تحتمل الاختزان ولا تطلب الفائدة .

وتتلخص الفكرة فى إصدار نقد جديد مُزكَّى ، نقد يضطر صاحبه إلى إنفاقه بمجرد اكتسابه ، ولن يكتسبه إلا إذا عمل وأنتج طيبًا يستفيد منه مجتمعه ، وهو الكسب الحلال المشروع ، ولن يفيد فى هذا المجال ما لم يشتر أيضا ناتج عمل أخيه ، فيزداد تبادل المنافع وتعم الرفاهية وتنعدم البطالة وينمحى الفقر .

وهذا الذى يدعو إليه الدكتور أبو السعود ليس خيالا ولا بدعا جديدا ، ولكنه أمر له سابقاته وتجاريبه . وقد حدث قبيل الحرب العالمية الأخيرة فى بلاد النمسا ، وحينما كانت الأزمة الاقتصادية فى أوج شدتها ، أن تقدم عمدة بلدية (فورجل) فى يوليو ١٩٣٢ بمشروع لإصدار نقد جديد يحل كوسيط للتبادل فى مجتمعه محل النقود الوطنية.

وجاء فى مشروعه " أن البطء فى تداول النقود قد أدى بالعالم إلى أزمة اقتصادية لم يسبق لها مثيل وفشل النقد – وهو وسيلة التبادل – المرة تلو المرة فى أن يصل إلى أيدي المنتجين وأخذ يتلكأ فى أيدى قليلين من الكسالى ولم يعد فى المنال الحصول على السلع والخدمات . وهكذا انقلب وسيط المبادلات وسيطا للاستغلال فى المضاربات . وحين تتقلص النقود من التداول الخاص بالاستثمارات يتقلص معها الإنتاج و " المجال المعيشى " للإنسان . فإذا ظلت النقود كما هى قابلة للاكتناز فسوف تدمر الرخاء والسلام فى العالم وسينسحب الدمار على الأجناس والشعوب كلها" .

وقد قبل اقتراح العمدة وأصدرت أوراق نقد أطلق عليها (شهادات العمل) وأعطيت لها قوة النقود وصارت تدفع بها مرتبات البلدية ، وكانت معادلة للأوراق الرسمية السائدة فى ذلك الحين ، ولكن قررت البلدية أن من يريد استبدال ورقة عمل بورقة نقد رسمية يدفع اثنان فى المائة نظير الإصدار . وقد أدى ذلك إلى عدم شراء الأوراق النقدية إلا لضرورة الدفع خارج نطاق البلدية المذكورة .

أما الصفة الهامة المميزة لأوراق العمل عن غيرها من الأوراق النقدية فهى ضرورة إلصاق طابع قيمته واحد فى المائة من قيمة الورقة فى موضع مخصص لذلك ، وذلك فى أول كل شهر . وقد أدى ذلك إلى محاولة كل حاصل لتلك الورقة أن يتخلص منها قبل حلول أول الشهر ، وهذه المحاولة تنعكس بالضرورة على صورة شراء أو دفع مستحق ، وهكذا تغيرت الأوضاع والعادات فأصبح الأفراد تفضل الدفع العاجل على الآجل ، وبدأ العمال والموظفون ينفقون نقودهم بمجرد قبضها ، وأخذ التجار يدفعون ما عليهم من رواتب وأجور وديون وضرائب بمجرد حصولهم من عملائهم على هذه النقود فإذا توافر لديهم نصيب سارعوا إلى إيداع الفائض فى البنك (حتى لا يدفعوا الضريبة المستحقة إذا ما حل أول الشهر) ونظرا لأن البنك لم يكن معفيا من هذه الضريبة فقد كان يسارع بدوره إلى إقراضها إلى المنتجين والتجار دون فائدة، فكأن هؤلاء المقترضين كانوا يتحملوا فقط ١٪ ضريبة (المستحقة بحلول أول الشهر) والمهم فى ذلك أنهم لا يدفعونها إلى المقرض وإنما إلى الدولة (البلدية فى هذه الحالة) نظير حصولهم على مايحتاجونه من رؤوس أموال دون أدنى فائدة .

وهكذا قضى هذا النظام على سيطرة أصحاب رؤوس الأموال واستغلال البنوك . ولم تمض إلا شهور قليلة حتى ازدهرت المدينة ازدهارا منقطع النظير واتسعت التجارات والصناعات ، وباتساعها زاد الطلب على العمال فارتفعت أجورهم نسبيا ، وبارتفاع الأجور زادت قدرتهم على الشراء فزاد الطلب على السلع فأنشئت الصناعات لمقابلة الطلب الجديد ، كما توسعت البلدية فى إنشاء المرافق العامة نظرا لتوافر الأموال لديها . وقررت مائتا بلدية فى النمسا عقد اجتماع عام لتطبيق هذا النظام الجديد . وزار " دلادييه " رئيس وزراء فرنسا السابق مدينة فورجل ودرس نظامها ووعد لئن عاد رئيسا للحكومة ليطبقه فى بلاده . كما نشرت مجلة ماتش الفرنسية عام ١٩٥٩ أن عمدة بلدية فى جنوب فرنسا قد طبق نفس النظام وقد أنقذ بلديته ومواطنيه من أزمة أصابت كل فرنسا بعد تدهور الفرنك المشهور ، وتم له ما أراد فى بحر شهور قليلة!

وللقارئ أن يتساءل عن مصير تجربة فورجل !

والجواب أن البنك المركزى رفع قضية على البلديات التى

تسمح بتداول نقود غير النقود التي يصدرها ، وقد حكمت المحاكم بإبطال تداول النقود الجديدة ، وحدث نفس الشيء في فرنسا .

وهل لا يخفى السبب على القارئ المدرك لأبعاد تحكم وسيطرة حزب الشيطان ؟!

لقد قضى النظام الجديد على كل فائدة ربوية وأصاب محترفي الإقراض الربوى بسهم في الصميم وأطاح بمن يسمون أنفسهم أصحاب رؤوس الأموال ، وأدى إلى ضياع نفوذ طبقة لم يكن همها إلا جمع المال واكتنازه لتستمد منه القوة والسلطان .

وقد تكون هذه القوة مجموعة من الأفراد تفرض نفوذها على الحكومة ، وقد تكون الحكومة نفسها . فإن ما يعرف بنظام " القطاع العام" قد يتخذ وسيلة – في الدولة الشيوعية أو الاشتراكية – للسيطرة على أرزاق المواطنين حتى تضمن ولاءهم لها!

ولعل القارئ يتذكر أنه قد أنشئ في مصر – منذ سنوات مضت – بنوك ادخار بدون فوائد في إحدى المحافظات ، وما لبث أن صدر قانون بمنع وإبطال هذه التجربة !!!

" كيف ستكون الأوضاع الاقتصادية فى مجتمع إسلامي" ؟

يجيب على هذا السؤال الدكتور محمود أبو السعود فى كتابه – خطوط رئيسية فى الاقتصاد الإسلامى – فيقرر أن أولى لبنات الإصلاح هى فرض " النقد المزكى" المطهر من شبهات الاكتناز والربا ومن شبهات عرقلة التبادل الكامل والإنتاج المتزايد. وهو نقد يشبه إلى حد كبير نقد فورجل السابق الإشارة إليه.

وهذا النقد تفرض عليه الدولة ضريبة تعادل أو تزيد عن نصاب الزكاة استناداً بقول المصطفى عليه الصلاة والسلام " إن فى المال حقا سوى الزكاة". هذا النقد الجديد يمنع كل اكتناز بقوة القانون لأن الاكتناز يحرمه الإسلام ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. ومن لم يزع بالقرآن يزع بالسلطان! !

ولأن النظام الإسلامى يقر الميراث ويعترف بالملكية الفردية فسيسمح بالادخار لمن شاء ، وسيكون لكل فرد حق إيداع ما فاض عن حاجته من نقود فى مصرف الدولة أو بيت المال دون أن يدفع شيئاً شريطة ألا يسحب ماله قبل مرور شهر من الزمان

وإلا اقتضاه المصرف دفع الضريبة ، ثم إن هذا المصرف سيقرض هذا المال لمن احتاجه بالضمان اللازم وبدون أية فائدة . وسيكون من حق المصرف أن يساهم بالأموال المودعة لديه فى الاستثمارات النافعة ويصدر للمودعين شهادات استثمار تفيء على صاحبها ربحاً حلالا لا شبهة فيه (وهى بالطبع غير شهادات الاستثمار محددة الفائدة والصادرة فى ظل نظام غير إسلامى بالمرة) .

(أرجو أن يلاحظ القارئ أننا نتحدث فى الأساس العلمى للفكرة ، أما مجال التطبيق العملي بتفاصيله فأمر متروك للمتخصصين من الاقتصاديين الإسلاميين) .

وقد يظن الكثيرون أن تفاصيل إقامة نظام اقتصادى إسلامي متكامل غير وارد فى المؤلفات الإسلامية المعاصرة . وهذا ظن خاطئ تنفيه كتابات الاقتصاديين الإسلاميين فى هذا المجال والتقصير هنا راجع إلى النشر وأجهزة أعلامنا التى تفرد صفحاتها وساعات إرسالها لأخبار الفنانين والفنانات " فإذا ما تكرمت وسمحت بمقال أو حديث إسلامى اختارت الموضوعات التى لا تعالج مشاكل الجماهير كقضايا التصوف وصلاة سنة العصر !!

وأود هنا أن أطمئن القارئ المتطلع إلى تطبيق إسلامى فى مجال الاقتصاد فأنقل له ما أكده لى الدكتور محمود أبو السعود من أن البنك الإسلامى فى دبي قائم ونجح تماما منذ سبتمبر ١٩٧٥م.

واضح أنه فى ظل استعمال النقد المزكى سيقبل الأفراد على شراء حاجاتهم بمجرد حصولهم على المال وذلك محاولة منهم فى التخلص من النقود حتى لا يتحملوا ضريبتها ، وكذلك سيفعل التاجر حيث سيعمد إلى التخلص من النقد الذي حصل عليه عن طريق شراء سلع جديدة وسيسره بالطبع أن يدفع فى الحال بل ومقدماً ! وبالتالى تزداد سرعة عجلة الإنتاج وتتوفر النقود اللازمة لصناعة السلع المطلوبة فى السوق كما سيزداد الطلب على العمال فترتفع أجورهم مما يؤدى إلى زيادة القوى الشرائية بيد العامل وهذا ما يعنى زيادة الطلب من جديد ... فزيادة الإنتاج ... فزيادة الطلب على الأيدى العاملة ... وهكذا دواليك .

هل هذا خيال ؟

لا . . إنه الواقع الذي عاشه المجتمع الإسلامي منذ قرون مضت وهو الواقع الذي سنعيشه لو طبقنا أحكام الله.

لكن هل يتنازل شياطين المال عن نفوذهم ويتركوا عباد الله يعبدون خالقهم ويطبقون أحكامه؟

هذا سؤال !

أشعر أن الحديث قد امتد بنا فى موضوع الربا ، لكن لعلك – عزيزى القارئ – تتفق معي على أهمية وضرورة فهم أصول هذه القضية بعد أن استشرى الربا وتخبط النظام الرأسمالى فى أزماته المتكررة كل عام ، وما زلنا نحن نجهل أبعاد خطورة هذا النظام على البشرية جمعاء خاصة وإن نظامنا يقوم أيضا على هذا "الحرام" الذى يوقعنا فى حرب مع الله ورسوله!

ومن المؤسف حقًّا أن يصل الجهل بالكثير من الاقتصاديين الإسلاميين – اسما فقط – إلى حد اعتبار أن الربا الحرام هو "الأضعاف المضاعفة" فقط. فالمسألة – كما رأينا – ليست مجرد نسبة تعلو أو تنخفض ، وإنما هى فى الاختيار بين نظامين مختلفين تماما. ومن السخف والسفه والجهل أن نتناقش حول سعر "الفائدة الحلال" فى النظام الإسلامي فى حين أن هذا النظام يحرم الفائدة أصلا!.

إن من لا يعترف بآيات القرآن الكريم – والعياذ بالله – تحيله إلى آراء كبار الاقتصاديين الغربيين لعله يقتنع . (وقد أشرنا إلى بعض منها منذ قليل) .

ونود أن نشير هنا إلى أن الربا قد حرم على مراحل – شأنه شأن الخمر – والآية التى تنص على (الأضعاف المضاعفة) تمثل المرتبة الثالثة من سلسلة التحريم . أما المرحلة الأخيرة التى نص فيها على النهى الحاسم عن كل ما يزيد عن رأس مال الدين فقد وردت فى الآية الكريمة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٧٨] .

فهؤلاء الذين يزعمون أن الإسلام يفرق بين الربا الفاحش وغيره يعكسون الوضع المنطقى المعقول ويجعلون التشريع الإسلامى بعد أن تقدم إلى نهاية الطريق فى إتمام مكارم الأخلاق يرجع على أعقابه ويتدنى لوضع غير كريم . ومثلهم كمثل من يستقر فى بحثه عن تحريم الخمر عند الآية ﴿ **لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ** ﴾ ! .

ومن المؤسف أيضا أن يظن البعض أن الحكمة من ورء تحريم

الربا هى حكمة أخلاقية فقط مما يدفعه إلى قبوله أو رفضه حسب مدى تمسكه بالقيم الأخلاقية !! والمأساة ، بل الجريمة فى هذا الظن، ليست جهل هؤلاء بحقيقة الربا وإنما فى استهتارهم ورفضهم للعامل الأخلاقى كأساس لرفض أو قبول تشريع ما .

وإذا كان الاقتصاديون الغربيون يحذرون من التعامل بالربا استنادا لوجهة نظر العلم فقط ، فإننا نرى فى الجانب الأخلاقى من المسألة ما يكفى لكى نكف فوراً عن التمادى فى إقامة نظامنا الاقتصادى على أساس ربوى . إن الأخلاق والروح هما جوهر الإنسان وملاك أمرها ، فكل شيء إذا كان يضيرنا فى صميم هذا الجوهر ،جدير بالرفض ولا يصلح لأن نأخذ به أبداً ولو كانت فيه منافع كثيرة من أى ناحية أخرى . فما بالك وقد أثبت العلم الحديث أن الربا لا ينطوى على أية فائدة بالمرة ! .إن الربا لا يبدأ العمل الذهنى عمله فيه – من رغبة الإنسان فى جمع المال إلى مختلف مراحل حياته الاقتصادية – إلا منطبعاً بتأثير الأثرة والبخل وضيق الصدر وتحجر القلب والعبودية للمال والتكالب على المادة ، ثم لا ينفك يجرى هذا العمل تحت تأثير مثل هذه

الصفات ويؤصلها فى الإنسان على قدر ما يتقدم ويقطع من مراحل النجاح فى تجارته الربوية.

بل إن التعامل بالربا بين حكومات الدول المختلفة يمزق أواصر المحبة التى ننشدها بين شعوب العالم. وقد حدث أن عقدت إنجلترا اتفاقية دين كبير مع الولايات المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية وعنها يقول اللورد " كينز" : "لا أستطيع أن أنسى أبد الدهر ذلك الحزن الشديد والألم المرير الذى قد لحق بى من معاملة أمريكا إيانا فى هذه الاتفاقية ، فإنها أبت أن تقرضنا شيئاً إلا بالربا"

وقال مستر "تشرشل" – حليف أمريكا – : " إنى لأتوجس خلال هذا السلوك العجيب المبنى على الأثرة وحب امال الذي عاملتنا به أمريكا ، ضروبا من الأخطار . والحق أن هذه الاتفاقية قد تركت أثراً سيئاً جداً فيما بيننا وبين أمريكا من علاقات"(*).

بقيت نقطة أخيرة نود أن نشير إليها قبل أن ننتهى من

(*) فى حديث لجريدة الأخبار ، وقبل توليه وزارة المالية ، ذكر الأستاذ الدكتور أحمد أبو إسماعيل أن الدخل القومى لمصر لا يكفى لمجرد سداد فوائد ديوننا المستحقة للاتحاد السوفييتى. ترى كيف يكون شعور المواطن المصرى تجاه هذا الصديق الحليف" (الطبعة الأولى)

حديثنا فى هذا الموضوع ، وهى تتعلق بحجة البعض – فى سياق تبريره للربا – من أن الدائن يحق له أخذ " الفائدة " من المدين فى مقابل تضحيته بمنح جزءٍ من ماله ، خاصة إذا كان المقترض يأخذ هذا المال من أجل الاستثمار . وهذا وهم باطل خاطئ . ولا يستقيم مع المنطق السليم ، فكيف نعطى لصاحب المال الحق فى الكسب وهو جالس فى بيته لا يبذل مجهوداً ولا يتعرض لمخاطر ؟ بل وعلى أى أساس يحدد قيمة الفائدة بالنسبة لمشروع لا يعلم إلا الله إن كان سيخسر أم سيكسب؟ ... بل ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بقيمة الربح الذى سيحققه إذا ما كسب المشروع .

إن المقابل الإسلامي لذلك وهو مشاركة صاحب المال للمستثمر فى مشروعه ومن ثَمَّ يتقاسما الربح بنسبة مشاركة كل منهما ومجهوده فى العمل، وإما فله أن يختزن ماله ويدفع عليه الضريبة المستحقة، ومن جهة أخرى يمكنه أن يقرض ماله بدون المشاركة فى المشروع وبذلك يستحق ماله فقط بغض النظر عن خسارة أو ربح المشروع.

هذه مسألة جوهرية جداً بالنسبة لموضوع الربا ، فالناس اليوم

لا يرون ما يمنع من التعامل مع البنوك بحجة أنها لا تخسر، وأن "الفائدة" التى يأخذونها ما هى إلا نصيبهم فى الربح.

والواقع أن البنوك لا تكسب دائما . فنظريًا البنوك معرضة لخسارة والواقع العملى يثبت أن كثيراً من البنوك تخسر . وفى عام ١٩٧٥ خسرت فى الولايات المتحدة وحدها ما يزيد عن أربعة عشر بنكاً! *ومن ناحية أخرى فإن " العميل " يفرض عليه سعراً محدداً للفائدة، كما أنه يجهل تماماً أين وكيف توظف أمواله ، ولا يحق له أن يتدخل فى اختيار المشروعات التى يستثمر فيها ماله.

والغريب فى هذا الأمر أن البعض يحلل التعامل مع البنوك إذا ما كانت ' حكومية " وكأن أحكام الله لا تطبق على الحكومة!!

ومع هذا ، فكل هذه الأمور الفرعية لا يجب أن تؤثر فى رفضنا أو قبولنا للنظام المصرفى الربوى ، فإن مقياس الرفض أو القبول يجب أن نخضعه لفهمنا لأصل النظام وأساسه لا لما يتفرع عنه.

(*) فى الأزمة المالية الأخيرة – عام ٢٠٠٨ – أفلست المئات من البنوك فى أمريكا وأوربا (الطبعة الثانية).

وبعد . فهذا هو " اليمين "

حرية مطلقة أشبه بالفوضى .

نظام اقتصادي يستعبد الإنسان عن طريق " الربا" . . . أكبر أكذوبة فى تاريخ البشرية ! .

هذه هى الحقيقة ، وهذا هو الواقع . لذلك لا نحسب أن من يتطلعون " لليمين " يشدهم هذا التأصيل لحقيقة الرأسمالية ، وإنما يبهرهم التقدم العلمى والحضارى السائد فى الدول الرأسمالية، ونسوا – أو لعلهم – غفلوا عن حقيقة هامة جدًّا فى تفسيرنا لتقدم الدول الرأسمالية – تقدماً ماديا لا إنسانيًّا – فما كان ليحدث ذلك لولا الثروات الطبيعية الهائلة التى تكتشف يوماً بعد يوم فى تلك الدول ، بالإضافة إلى استيلائها بدون وجه حق على ثروات الدول المتخلفة . والدليل على ذلك أن بريطانيا "العظمى" تراجعت إلى الصفوف الخلفية يوم أن غربت شمس إمبراطوريتها، بل إنها معرضة للإفلاس تماماً لو أقدم السادة ملوك البترول العرب على سحب أموالهم من بنوكها !

ونعود فنؤكد على أهمية تأصيل التشريعات والقوانين

الخاصة بالنظام تأصيلا علميًا والتحذير من مجرد الاكتفاء بالحكم بما نراه من واقع ما يلبث أن يتغير. وهو ما نراه واضحا بالنسبة للنظام الرأسمالى بالذات الذى يعانى اقتصاده الآن من تضخم هائل وأزمات عنيفة تتكرر كل فترة.

والإنسان يتعجب لأشياء كثيرة ، لكن الذي لا نفهمه هو الدعوة للأخذ بنظام بدأ خطه البيانى مرحلة هبوطه للقاع!!.

* * *

obeikan.com

الإســـلام

أمر محير... هو أن نتحدث عن الإسلام فى معرض تناولنا للنظامين السائدين فى عالمنا بالبحث والتحليل .

والحيرة ليست عن ضعف فى الإسلام نشفق عليه منه إن نحن أنزلناه ساحة الاختيار والمفاضلة ، وإنما أرى أننا نظلم الإسلام إذا ما وضعناه فى موضع المقارنة مع غيره من النظم الحاكمة وهو عن ساحة التطبيق بعيد .

ولكن الحيرة قد تتبدد إذا ما استرجعنا المنهاج الذي أخذنا به فى عرضنا لكل من النظامين اليساري واليميني ، حيث التزمنا ما أمكن – بتأصيل المفهوم العلمي لكل نظام والبحث فى أساسه الفلسفى ، وما عرجنا أحياناً للحديث عن التطبيق ، إلا للتدليل على عجز الفكرة .

لذا فإننا لانجد ما يحول دون نهجنا لنفس المنهاج ونحن بصدد الحديث عن الإسلام .

وقد دفعني لقصر الحديث في مجال تأصيل الفكرة أمران اثنان ، أولهما عام وثانيهما خاص .

أما "العام" فهو حال الكثير من شبابنا المسلم اليوم الذين يقعون في خطأ فادح – لا أعتقد أن أحدا ما قد سلم من الوقوع فيه – وذلك حينما نبدأ دراستنا عن الإسلام كتشريعات وقوانين جامدة لا نعرف لها أصلا ولا نفهم لها معنى أو هدفاً . في حين أن الإسلام جاء ليقدم للإنسان تصوراً خاصًّا ومفهوماً محدداً عن الحياة ، وما هذه القوانين إلا وسائل لتنظيم حياة الإنسان ليعيش في ظل هذا التصور. ونأمل أن نزيد هذا الأمر وضوحاً على الصفحات المقبلة.

أما " الخاص " فيتعلق بسؤال وجهه لي أخ صديق قبيل كتابتي لهذا الجزء من الكتاب .

سألني : " كيف تحكم على الإنسان ." ؟

والحقيقة أنه سؤال صعب وإن كان يبدو للوهلة الأولى أنه سهل يسير .

قد نتفق على عدة مقاييس كالأخلاق والنجاح مثلا، لكن

هناك أمرا واحدا أرى أنه يحمل فى طياته كافة المقاييس التى تحدد موضع الإنسان من الحياة . . . ذلك هو "فهم الحياة " فإذا ما فهم الإنسان معنى الحياة والغاية من وجوده ، وعاش فى ظل هذا المفهوم والتصور فإنه ولا شك سيحيا مطمئنا سعيدا . . مستفيدا من حياته ومفيدا لمن حوله .

والأهم من هذا كله أنه سيعيش صديقاً للحياة .

. . ذلك هو الإنسان السوى .

وقد ارتأيت أن يكون هذا الحديث هو مدخلنا للحديث عن الإسلام.

لماذا ؟

إن معظمنا يظن أن الإسلام هو الصلاة والصوم . . الزكاة والحج . . قطع يد السارق ورجم الزانى إلى آخر ما تعلمناه من شعائر وأحكام . بينما الإسلام يعنى إسلام الوجه لله وإخضاع النفس لعبودية الله فى كل ما تقوم به من أعمال ، وما الشعائر – كالصلاة والصوم – إلا وسائل لخلق الإنسان لتكوين النفس البشرية التى تحقق وتقيم النظام الذي يحكم الحياة والبشر بقوانين

وأحكام من خلق الحياة والبشر . وفرق كبير بين أن تكون الشعائر مجرد غاية وبين أن تكون وسيلة لتحقيق غاية أسمى وأعظم.

الإسلام يربى الإنسان – عن طريق الشعائر – ليكون أهلا لخلافة الله فى الأرض ومستحقًّا لهذا التكريم الذي كرمه الله به حين أمر الملائكة – عباد الله المخلصين – بالسجود له.

إن العبادة فى الإسلام لا تعني أن تقوم الليل وتصوم النهار. ولنا فى مواقف وتوجيهات رسولنا عليه أفضل الصلاة والسلام ما يرشدنا لفهم معنى العبادة . ونحن نعلم ما قاله – عليه الصلاة والسلام – حينما استقبل قبيلة جاءته تعلن إسلامها فرأى من بينها شخصاً يصلى بينما الآخرون منشغلين كل بعمله . فلما سأل عنه ، قالوا له : هذا خيرنا . يقوم ليله ويصوم نهاره. فقال ﷺ قولته الحكيمة : " أقلكم خير منه"

العمل هو العبادة . وما الصلاة والصوم إلا شعائر فرضها الله لكى تعيننا على الاتصال به – سبحانه وتعالى . ومن ثم نتم عملنا كما يحب الله منا أن نتمه.

والواقع أن مسألة " العبادات والمعاملات " قد شوهت فى

ذهن المسلم بدرجة تنذر بالخطر فيما يتعلق بفهم الناس للإسلام ، وللشهيد " سيد قطب " قول حكيم فى هذا ، حيث يقول " إن تقسيم النشاط الإنسانى إلى "عبادات" و " معاملات " مسألة جاءت متأخرة عند التأليف فى مادة " الفقه " . ومع أنه كان المقصود به – فى أول الأمر – مجرد التقسيم " الفنى " ، والذي هو طابع التأليف العلمي ، إلا أنه – مع الأسف – أنشأ فيما بعد آثارا سيئة فى التصور ، تبعته – بعد فترة – آثار سيئة فى الحياة الإسلامية كلها . إذ جعل يترسب فى تصورات الناس أن صفة "العبادات " إنما هى خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله "فقه العبادات " بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثانى من النشاط ، الذى يتناوله "فقه المعاملات" .

وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه . فلا جرم يتبعه انحراف فى الحياة كلها فى المجتمع الإسلامي .

ليس فى التصور الإسلامى نشاط إنسانى لا ينطبق عليه معنى العبادة ، أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف . والمنهج الإسلامى كله غايته تحقيق معنى العبادة أولا وأخيراً"(*) .

(*) " خصائص التصور الإسلامى ومقوماته" لسيد قطب .

إن الحديث عن الإسلام يطول ويتشعب ولا تكفيه صفحات من كتاب ولا حتى كتب عدة. والخطر كل الخطر أن نبحث فى أحكام الإسلام فى غيبة عن فهم الأساس العقائدى له. ولعل هذا ما يجعلنا ندرك السر وراء قصر دعوة رسول الله – لمدة ثلاثة عشر عاماً من عمر الدعوة – على تأكيد وتثبيت وغرس مفهوم "لا إله إلا الله".

ثلاثة عشر عاما لتوضيح أن الله واحد وأن العبودية لله وحده. مدة طويلة؟ ... هذا ما يعتقده السادة المثقفون المتعلمون .. أبناء القرن العشرين.

لكن يبدو أننا فى حاجة إلى أكثر من هذه المدة لكى نفهم ما نردده، وندرك معنى الشعار الذي نرفعه . . " لا إله إلا الله" ! ! لقد آن الأوان ، وإنها لمسألة مصيرية بالنسبة لمستقبلنا ، أن نفهم ما يعنيه إسلامنا. والحقيقة إننى لا أميل إلى القول بأننا قد ابتعدنا عن الإسلام. لا، نحن لم نبتعد . . فحتى الراقصات يذهبن للحج! وإنما الحقيقة أننا لا نفهم هذا الدين الذي نرتبط به وندافع عنه.

إذن . فحديثنا هنا عن " المذهبية الإسلامية " .

وبادئ ذي بدء ، أود أن أقرر أننا لا نستخدم تعبير "الفلسفة الإسلامية " لأن الفلسفة قد أضلت بالكثريين ومنهم أعلام الإسلام الذين نقلوا عن الفلسفة اليونانية وعالجوا المفاهيم الإسلامية بمنطق هذه الفلسفة فأخطأوا وضلوا ضلالا مبيناً. وفى عصرنا هذا بلينا بالكثير من " رجال الدين " الذين نالوا درجة "الدكتوراه " فى الفلسفة من جامعات فرنسا خاصة فى مجال "التصوف" والحديث عن " ماهية الله " . وكما يقول المفكر الشهيد سيد قطب " فإن مفرق الطريق بين التصور الفلسفى والتصور الاعتقادى – بصفة عامة – أن التصور الفلسفي ينشأ فى الفكر البشرى – من صنع هذا الفكر – لمحاولة تفسير الوجود وعلاقة الإنسان به . ولكنه يبقى فى حدود المعرفة الفكرية الباردة. أما التصور الاعتقادى – فى عمومه – فهو تصور ينبثق فى الضمير ، ويتفاعل مع المشاعر ، ويتلبس بالحياة ، فهو وشيجة حية بين الإنسان والوجود . أو بين الإنسان وخالق الوجود" .

والآن . ما هى "المذهبية الإسلامية "؟.

وكيف نفهم ونعيش التصور الاعتقادى الإسلامي ؟

تقوم المذهبية الإسلامية على نظرية – أو حقيقة – التوحيد ، والتى نتبين منها وحدة الخالق ، ووحدة الكون والحياة ، ووحدة المخلوق .

وكما أسلفنا القول ، ليست مشكلة البشرية فى الاعتقاد بوجود خالق وإنما يختلف الناس وتختلف الأنظمة تبعا لتصور كل منها لحقيقة هذا الخالق .

والإسلام – كدين الله ووحى من السماء – يحدد مفهوم مذهبيته على أساس أن الخالق لهذا الكون وهذه الحياة هو إله واحد . . متوحد فى أفعاله وأقواله . والواقع أن دراسة العلوم المختلفة تؤكد هذه الحقيقة . . حقيقة التوحيد . فكل الأشياء مرجعها إلى أصل واحد . وقد كان الأجدى بنا ونحن نعيش عصر العلم أن نؤمن بهذه الحقيقة .

إذن هى ليست آلهة متعددة وإلا تعددت الأصول .

وهو إله مطلق غير محدود وإلا ما استطاع أن يحيط بالمحدود . وبما أن العقل محدود فمن المستحيل أن يتصور المطلق ،

وكل ما يستطيعه العقل هو أن يدرك أثر المطلقات . وليس معنى عجزنا عن تصور المطلق أن نرفضه ، فالبديهيات من الأمور التى لا يمكن تصورها ومع ذلك فهى من أساسيات العلوم الرياضية ، كذلك فإن كمية " اللانهاية " كمية مطلقة – بمعنى أنه لا حد لها – ومع ذلك فهى تمثل أصلا ثابتا من أصول الرياضيات .

وهو ليس إلها عاجزاً غافلا عما يفعل ، بل هو المدرك المدبر القادر . . الواعى لما يفعل ، وإلا ما وجدنا الخلق على هذه الصورة المنسقة المتزنة المطردة .

وليس الأمر أمر صدفة لأن الصدفة إذا ما تكررت دائما صارت هى القانون .

هذا التوحيد وهذه الوحدة بالنسبة للخالق تتراءى وتبدو لنا أيضا بالنسبة للكون . فالكون وحدة واحدة يخضع لقوانين ونواميس ثابتة . ومفهوم الوحدة بالنسبة للكون يعارض ويخالف تماماً مفهوم الماركسية التى تقوم على قانون "التضاد" ، فنحن نرى أن مافى الطبيعة ليس تضاداً ولا صراعا وإنما اتساق وتباين فى الشكل الواحد . فالأبيض ليس نقيض الأسود كما اعتقد " إنجلز"

وإنما هما درجتان مختلفتان متباينتان فى اللون . وهكذا بالنسبة لأية ظاهرة .

والعلم الحديث ساعد كثيراً فى إبراز وتأكيد هذه الحقيقة ، حقيقة الوحدة الشاملة . فهذا " أينشتين " العالم الكبير الذي نظر إلى السماء فرأى نجمين فى السماء فقال " مستحيل إلا أن يكون بينهما نجم ثالث " فاعتبروا ذلك منه تخريفاً وجنوناً ، إلى أن اخترعت " التلسكوبات" الضخمة فإذ بالنجم الثالث يبدو! وعندها شهد أينشتين أن " لا إله إلا الله"

والكون فى وحدته هذه يسبح بحمد الله ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾ وما هذا التسبيح إلا خضوع أجزائه كلها لقوانين الله الأزلية الثابتة ، فالتسبيح لا يعنى مجرد ترديد عبارات وألفاظ ، وإنما هو الخضوع فى كل عمل تؤتيه لأحكام وقوانين الخالق .

وبعد وحدة الخالق ووحدة الكون تأتى وحدة المخلوق والتى تنبثق عن وحدة الخالق ، فإذا كان الخالق لنا جميعاً واحداً فإن الإنسان بالضرورة لابد وأن يكون متوحداً فى ذاته ، ومن هذه الوحدة الذاتية تتحق وحدة المجتمع والإنسانية .

هذه الوحدة هى أساس تركيب المجتمع المسلم ، فالإنسان فى وحدته هو محور الحياة ، ثم هو فى تعاونه مع بنى جنسه يمثلون وحدة واحدة تعيش حياة مطردة متسقة مع وحدة الكون، والكل يحقق بذلك مفهوم وحدة الخالق. هذه هى – باختصار وبساطة شديدين – نظرية التوحيد التى ترتكز عليها المذهبية الإسلامية ، وإن فهم النظرية يحقق للإنسان تصوراً خاصًّا عن الحياة ينشئ فى القلب والعقل حالة من الانضباط لا تتأرجح معها الصور ولا تهتز معها القيم ولا يتميع فيها التصور ولا السلوك ، كما أن هذا التصور ثابت غير متطور فى ذاته لأن الإنسان يتلقاه كاملا من عند الله الخالق، وإنما تتطور البشرية فى إطاره وترتقي بإدراكه والاستجابة له.

والإنسانية حين تتجمع على هذا التصور ، تصبح فى خير حالاتها لأنها تكون حينئذ فى حالة " الوحدة" التى هى حقيقة كل شيء : حقيقة الخالق والكون والحياة والإنسان، وهى بذلك تكون فى أوج قوتها الذاتية وفى أوج تناسقها مع حقيقة هذا الكون الذى تعيش فيه وتتعامل معه ، ومع حقيقة كل شيء فى هذا الوجود تؤثر فيه وتتأثر به.

وحينما عاشت المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل هذه الحقيقة أضاءوا الأرض بنور الحق ، وأخرجوا البشرية من ظلمة الجهالة إلى نور المعرفة ، وأقاموا حضارة الإنسان فيها هو السيد لأنه كان عبدا لله وحده .

ويوم تتحقق مرة أخرى هذه الوحدة ، سيتجه النشاط الإنسانى كله فى حركة واحدة إلى تحقيق غاية الوجود الإنسانى : عبادة الله الخالق وتعمير الأرض وفق سنن وقوانين الله جل شأنه .

هذا الحديث عن " المذهبية الإسلامية " . . . ماذا يعني ؟

هل هو مجرد حديث عن نظرية علمية متكاملة ؟

الواقع أن الأمر أعمق من ذلك بكثير ، وهو بالتأكيد ليس مجرد كلام ، فالإنسان لا يكون مسلما إلا إذا عاش – فى كل جزئية من حياته – هذا المفهوم ، وأعتقد فى هذا الأساس العقائدى ووعي هذا التصور الإسلامى ، وبعدها ينطبق يجاهد فى سبيل إقامة حكم الله .

المرحلة التالية لفهم ومعايشة هذا التصور هى فهم ما يعنيه من أثر وانعكاس على كافة أوجه النشاط البشرى . فالقوانين

الإسلامية التى تنظم هذا النشاط ترتبط ارتباطا كليًا بمفهوم التوحيد والوحدة وهى بذلك تحقق للإنسان المناخ الملائم لكي يحيا فى ظلال التصور الإسلامي.

وقبل أن نعرض لبعض الأمثلة التى توضح هذا المعنى ، نود أن نشير أولا إلى مفهوم إسلامي أساسى ينبثق أيضا من الإيمان بحقيقة التوحيد والوحدة ، وهو مفهوم " الاستخلاف" . فالمسلم يؤمن بأنه مستخلف من الله فى الأرض ، وهذا الإيمان يولد فى نفس المسلم العزة والكرامة والقوة ، كما يحافظ عليه دائماً بحيث يبقى فى دائرة " حزب الله " . وهكذا تستمر وتدوم العلاقة بينه وبين خالقه وينشط فى تعمير الأرض واستكشاف قوانين الحياة.

والإنسان الذي يعيش بهذا المعنى يختلف قطعاً عن ذلك الذى تمضى به الحياة وهو منفصل عن الرباط الذي يحكم حركتها ككل .

أما عن كيفية رد كافة القوانين الإسلامية إلى التصور الإسلامي المتكامل عن الخلق والحياة والمخلوق ، فإننا نكتفى بعرض

بعض الأمثلة التى توضح ذلك . لكن علينا أولا أن نتذكر دائما أن قوانين الإسلام – حيث إنها من وضع الله الخالق – جاءت مسايرة للفطرة ومتفقة مع حاجات الإنسان ومشبعة لرغباته وغرائزة التى أودعها الله فيه ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠]

ومن هنا تأتى أهمية أن نبدأ حديثنا بعرض المفهوم الأساسى لأهم قوانين الاقتصاد الإسلامى . . . قانون " الملكية " .

الإسلام لا ينكر الملكية لأن " التملك " غريزة بشرية لا يستطيع أشد الناس التصاقاً بالماركسية أن ينكرها .

والتملك يصبح ضرورة طبيعية نتيجة للإيمان بحقيقة التوحيد والوحدة ، فالإنسان يحقق " وحدته فى ذاته " عن طريق ما يتملكة من ماديات . غير أن الأمر لا ينتهى عند الفرد ، فهناك أيضاً وحدة المجتمع ومن هنا يتضح الفارق بين مفهوم الملكية فى الإسلام عنه فى الرأسمالية

فالإنسان " الرأسمالى " لا يرتبط إلا بنفسه ولا يخضع إلا لعقله وبالتالى هو لا يأبه بمن حوله فيندفع عن طريق التملك

كيفما شاء بلا ضوابط أو قيود . فى حين أن التصور الإسلامي عن وحدة المجتمع يفرض على المسلم أن يفكر فى الآخرين كما يفكر لنفسه . وهكذا يسيد التراحم والمحبة والتآخي بين صفوف المجتمع المسلم ، لا عن طريق الدافع الذاتي فحسب ، وإنما بالقوانين أيضا كالزكاة والضرائب .

وإيمانا بمفهوم التوحيد نجد أن التملك لا يجوز إلا إذا تحقق عن طريق الكسب الحلال الذي بينه الله لنا ، وفى نفس الوقت يقضى هذا الإيمان على نزعة الاستغلال والاحتكار التى تتولد فى النفس البشرية فقانون الاستخلاف يحتم على الإنسان أن يتصرف فيما يملكه بما يفيد المجتمع من حوله لأن ملكيته ليست مطلقة وإنما هى أمانة استخلفه الله واستأمنه عليها . ولعل أبرز أحكام الإسلام فى ذلك ما جاء فى حديث رسول الله : " من كانت له أرض فليزرعها أو فليمنحها أخاه" .

وننتقل الآن إلى أهم وأخطر وأعظم مفاهيم الإسلام المرتبطة بحقيقة التوحيد والوحدة .. مفهوم " الحرية " .

الإنسان لا يكون مسلماً إلا إذا كان حرًّا .

هذه هى الحقيقة التى تؤكدها آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ .

انظروا إلى أى مدى يدفع الإسلام المسلم إلى الاعتزاز بكرامته وحريته : يقول رسولنا الكريم " من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد" .

وفى سورة النساء : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾ [النساء : ٩٧]

وفى سورة الأنفال : ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً** ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

إن المسلم لا يرضى بالظلم أبدا ولا يخضع له !

ومن هنا كانت القاعدة الشرعية : ليس للمسلم أن يحارب إلا فى حالين : إذا اعتدى على ماله أو عرضه أو وطنه أو دينه ، أو إذا حجر على حرية رأيه .

ما أعظم الإسلام !

ما أعظم الحرية فى الإسلام ! إنها حرية الكرامة والعزة . . حرية الاتصال بالله والاتساق فى حركة الكون والحياة . . حرية الخضوع للقوانين الأزلية التى تخضع لها سائر مخلوقات الله .

ليست هى حرية الجنس وتقديس الذات كما ينادى أرباب الشيطان .

ثم ماذا عن قضية القضايا . . السياسة والحكم؟.

إن أساسيات الحكم فى الدولة الإسلامية فى غاية من البساطة والوضوح ، وهى مرتبطة – شأنها شأن سائر الأحكام – بمفهوم التوحيد والوحدة والاستخلاف.

فالحاكم يصبح خليفة لله بأمر البيعة من كافة المسلمين ، وهو كذلك خليفة لأمر الله فى الأرض ، وذلك كله من مقتضى الإيمان بوحدانية الله ووحدانية المجتمع.

والحاكم المسلم مستخلف على أمر الله وهو أمين وقائم عليه، ولا يملك أن يسن قانونا مخالفا لما شرعه الله . بل إن طاعته تسقط تلقائيًا إذا ما حكم بغير مأنزل الله . وكم كان سيدنا أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – عظيما حيث قال : "أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم" .

والواقع أن التسليم بحاكمية الله وحده يرتبط ارتباطا كليا بالتسليم بألوهيته سبحانه وتعالى. فكما أن المسلم يعتقد بأنه لا إله إلا الله وألا خالق إلا الله وألا نافع أو ضار إلا الله . . . ويتوجه لله وحده بالشعائر التعبدية ، فإنه كذلك يؤمن بأن لا حاكم إلا الله وألا مشرع إلا الله وألا منظم لحياة البشر إلا الله . . فيستقبل من الله وحده القوانين والأحكام التى يدبر بها شئون حياته . إن التصور الإسلامى لا يقف عند الإيمان بالتوحيد من ناحية الخلق وإقامة الشعائر فقط وإنما يمتد ليشمل الإيمان بوحدانية الحاكم ووحدة الأحكام الصادرة عن الحاكم الخالق . . لله سبحانه وتعالى. أما من حيث تنظيم المجالس التى تقدم العون والمشورة للخليفة فهذا أمر تفصيلى يتفق عليه المسلمون حسبما تكون أحوالهم وظروفهم بشرط ألا يخالف الأصول الإسلامية وألا يخرج عن دائرة التصور الإسلامى . فمثلا يتم انتخاب واختيار أعضاء مجلس الشورى حسب الكفاءة والإلمام بأحكام الدين وقوانين الحياة ، مع الاحتفاظ بالشرط الأساسى الأول للاختيار ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فلا مكان فى القيادة لإنسان لا يتقى الله فى عمله وخلقه وعلمه.

كما أن الإيمان بقانون "الوحدة" يلغى تماما فكرة تقسيم أبناء الأمة إلى فئات حسب عملهم . فالمسلمون جميعهم متآخون متوحدون لا فرق بين مهندس وعامل ، أو فلاح ومالك أرض .

الكل أمام الله سواء ، لا تميز لعبد عن آخر إلا بالعلم . ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾؟ والعلم هنا – كسائر الأمور – له تعريفه وخاصيته المميزة التى ترتبط بالتصور الإسلامى الشامل ، فهو العلم الذي يزيد معرفة الإنسان بربه ويثبت الارتباط بين الخالق والمخلوق . وهذا لا يعنى مجرد الاكتفاء بالعلوم المتصلة بأحكام الشريعة والفقه ، فإن فى دراسة علوم الطب والهندسة والفلك والتجارة . . إلى آخر العلوم الطبيعية والتطبيقية ما يحقق للبشرية معرفة الحقائق الكبرى الثابتة التى تعلن عن وجود الله ووحدانيته . فالطبيب المسلم يزيد الناس إيماناً بكشفه لدقة وعظمة وقدرة الله فى خلقه . كذا المهندس المسلم الذي يصل بتعامله مع قوانين الحركة واكتشافه لها إلى تأكيد حقيقة الخالق الواحد القادر المنظم لحركة الكون والحياة . ولرب عامل بسيط لا يحمل من الشهادات سوى شهادة الإيمان يزيده

العلم بحركة الآله إيماناً يخرج به على الناس فيفيدهم أكثر من مهندس عمت عيناه عن تبصر حقائق العلم التى تشهد بأن "(لا إله إلا الله)".

وبعد. أعود فأؤكد – فى نهاية هذا الحديث الموجز عن المذهبية الإسلامية – على أهمية وضرورة " التأصيل". تأصيل الفكر والقوانين. إنه من الخطأ الجسيم أن نتناول الأحكام الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمعزل عن المفهوم العقائدى للإسلام ، ذلك أن تلك القوانين تعكس الأبعاد المادية لمفهوم عقيدة التوحيد الإسلامية . وإن تناولها تناولا ماديا مجردا ينزع منها فى الواقع روح الأصالة المنبثقة عن إيمان الإنسان بالله الواحد الأحد ، وبذلك تفقد هذه القوانين أهم وأسمى ما يميزها عن سائر القوانين البشرية الوضعية . هذا الخطأ والقصور كثيرا ما نلاحظه فى كتابات العديد من كبار الكتاب الإسلاميين. فالأستاذ العقاد مثلا وصل لحد العبقرية فى تحليل وتأكيد صلاحية الكثير من الأحكام الإسلامية لكنه لم يصل بنا فى كتاباته إلى الغاية السامية التى ننشدها من تطبيقنا لهذه الأحكام حيث

لا نشعر فى كتاباته بروح مفهوم العبودية لله الذي ينمى فى الإنسان الإحساس بأن الزكاة – مثلا – ليست – مجرد قانون اقتصادى بل هى عبادة نخضع بها المال لقانون التناقص الأزلى الذي يخضع له سائر الوجود . ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] .

بل إن مفكرنا الكبير الشهيد سيد قطب – عليه رحمة الله – بدأ أيضا بمثل هذا الأسلوب كما نلاحظ فى كتابه القيم "الإسلام ومعركة الرأسمالية " حيث تناول قضية الاستغلال وموقف الإسلام منها من زاوية مادية فقط ، بعكس كتاباته بعد ذلك والتى حلقت بنا فى آفاق التصور العقائدى الشامل للإسلام حتى بلغ مبلغاً عظيما – لم يبلغه إلا قلة نادرة فى عصرنا هذا – وهو يتجول بنا فى رحاب أقدس الكلمات فى "ظلال القرآن" .

هذه القضية فى الواقع ذات أهمية بالغة ، وعلينا أن ندرك دائما جوهر الاختلاف بين التشريعات الإسلامية وسائر التشريعات الوضعية . فالأحكام الإسلامية لا تستهدف مجرد تغيير واقع مادى محدود وإنما تصدر عن نظرة شاملة لهذا الوجود كله وتمتد

لتحكم حركة الإنسان وفق مفهوم شامل متكامل عن الوجود والحياة.

لهذا نرى أنه من الخطأ الجسيم أن نسعى لإقناع غير المسلم بصواب الأحكام الإسلامية ، ذلك أنه لن يؤمن بها وبكمالها وصوابها .. بل وإمكانية تطبيقها إلا إنسان يستشعر معنى العبودية لله ويعيش بعقله ووجدانه هذا المفهوم.

إنك مثلا لتحدث عير المؤمن عن شعورك وأحاسيسك ودموعك التى تنهمر خشية من الله وحبا له وأنت ماثل بين يديه – سبحانه وتعالى – تصلى . ويقف هذا الإنسان ليصلى ويركع ويسجد ويقرأ القرآن – كما تفعل – فلا يجد فى نفسه أثرا مما حدثته عنه . .

لماذا؟.

لأن الصلاة ليست حركات تؤدى وكلمات تقرأ كقراءة كلمات ماركس فى كتبه . . وإنما هى – قبل كل هذا – إعداد النفس للقاء ربها والمثول فى حضرته والاتصال به ومناجاته والتقرب إليه. فهل لهذا صلة بقراءة صماء وحركات جرداء؟.

إن الماركسي – مثلا – ليقرأ كلمات إلهه ماركس – ومثله سائر الخاضعين لغير الله – فلا ينفعل لها وجدانه ولا تتفاعل معها مشاعره ولا يطمئن إليها قلبه ، فهى لا تمس الجانب الفطرى فى الإنسان بل وتقتل فيه أحاسيسه ومشاعره لأنها لا تقترب إلا من الجانب المادى فيه فقط . أما أحكام الخالق – والتى تحقق له إشباعا ماديا يتفق وطبيعة ما خلقه الله عليه – فتحقق له أيضا إشباعاً روحيا لا تحققه قوانين من يجهلون أمر الروح ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ [الإسراء : ٨٥].

وسيظل الإنسان يتمزقه القلق ، ويعتريه الاضطراب وتعجزه الحيرة طالما ظل منفصلا عن القانون العام الذى ينظم حياته وحياة الوجود كله من حوله .

المسلمون فى لعبة اليسار واليمين

أخى الشاب

لا أخالك تظن أن ما عرضناه من اختلاف أساسى بين الأنظمة الثلاثة كان بهدف ملء صفحات خالية ، أو فتح باب الحوار لمناقشات نقتل بها الوقت ونتسامر فيها مع أصحاب الرأى مستمتعين بسماع التعبيرات المنمقة الفخمة !

لا . فما هكذا تكون نظرة أصحاب المستقبل للأمور

والشباب المسلم ليسوا هم أصحاب المستقبل فحسب، بل هم أمل البشرية لإنقاذها من الضياع الذى انحدرت إليه . ولا نقول هذا تعصباً وإنما هى الحقيقة التى تؤكدها طبيعة النظام الإسلامى الذى ينفرد بتأصيل أحكامه وقوانينه تأصيلا يرجعها إلى الحقيقة الأزلية المطلقة . . . حقيقة الله خالق الوجود .

لهذا كانت قضية الاختيار أساسية وحتمية بحيث يبدو أى

حديث عن الإصلاح وكأنه من نفايات القول ما لم يتم حسم هذه القضية أولا . إننا نتوجه هنا بحديثنا إلى الشباب الجاد الذي يسعى للإصلاح وإعادة بناء الأمة ولا يبحث عن مكسب رخيص يحققه من شعارات يرددها فى وقت تحتاج فيه الأمة إلى نظام متكامل يصلح ما أفسده أصحاب الشعارات والحناجر المتضخمة!

ليس أمامنا فى الواقع ، إلا اختيار من ثلاث : الماركسية – الرأسمالية – الإسلام . وإن كان الاختيار فى حقيقته ينحصر بين: الارتباط بالله، أو الارتباط بالفلسفات الوضعية أيا كانت هويتها.

وهذا الارتباط لا يعني مجرد قبول " الشكل " وإنما يعنى أساسا إعادة تشكيل " الشخصية " بما يتفق والنظرة الشمولية للنظام .

وحينما يرتبط الإنسان – وفق هذا المفهوم – بالنظام الربانى، فإنه ينفر تلقائيًّا من مجرد مناقشة احتمال تقبله للأحكام الاقتصادية الماركسية مثلا لأنه يدرك تماما أنها تنبثق عن تصور يختلف فى أساسه عن تصوره الإسلامي ، وبالتالى فهى فى نتائجها وأهدافها لا تحقق له الحياة التى يصبوا إليها وفق مذهبيته

الإسلامية ، حتى وإن بدت هذه الأحكام عادلة بالقياس إلى أحكام أخرى أشد ظلما للإنسان لذلك فنحن نرى أنه من الجهل والكذب والنفاق والخديعة أن يفصل بعض دعاة الماركسية نظامها الاقتصادى عن فلسفتها المادية الإلحادية. ونحن لانتصور أنهم يجهلون هذه الحقيقة العلمية ، وإنما هم يلجأون لهذا الخداع كأسلوب مرحلى لقيادة أمة يدركون تماما أنها لا تسمح بأن يقودها "كافر" حتى وإن كانت هذه الأمة لا تعبد خالقها حق العبادة!

ونحن نأمل أن نكون قد ساعدنا ، بما قدمنا من عرض متواضع ، شباب الأمة من الانزلاق فى متاهات " لعبة اليسار واليمين " . هذه " اللعبة " التى تستنزف جهود المسلمين ولا تحقق لهم إلا مزيداً من تشويه الأمور والبعد عن الحقيقة.

ورغم أن اليسار واليمين فى منطقتنا لا يمثلان – وكما أوضحناه فى مقدمة الكتاب – حقيقة ما تعنيه هاتان الكلمتان ، فإن الواجب يحتم علينا أن نكشف مناورات أصحاب اللعبة فى محاولة منا للحد من استمرار هذه الملهاة السخيفة!

والواضح الآن أننا أمام مؤامرة تستهدف تزييف المفاهيم الإسلامية وتشويهها. وفى هذا ينشط اليسار أكثر من غيره من أجنحة حزب الشيطان !

وأمامى الآن مقال لقائد اليسار (*) نشر بجريدة الأخبار بتاريخ ١٩/٦/١٩٧٦ يدعى فيه أن " المهم هو تفسير الإسلام.. هل هو لصالح الأغنياء أم الفقراء "؟ وهو سؤال خبيث ينطوى على جهل تام بحقيقة الإسلام. فالإسلام ما جاء لإنصاف طبقة معينة ، وليس معنى حماية الإسلام للفقراء أنه دين الفقراء فقط ، وإلا فكيف بايع المسلمون "عثمان بن عفان " رضي الله عنه خليفة لهم ؟!

الإسلام – كما أوضحنا – يحقق للإنسان تصورا شاملا متكاملا عن الحياة ولا يعيب المسلم بعد ذلك أن يعيش – فى ظل هذا التصور – غنيًّا أو فقيراً. ومع هذا ، فإن فى أحكامه الاقتصادية وقيمه الأخلاقية ما يلغي تماما احتمال أو إمكانية تباعد واتساع المستوى المادى بين الطبقات المختلفة. أما التفاوت

(*) خالد محيى الدين . الرئيس السابق لحزب التجمع.

في الدخل حسب الجهد والعمل فهو أمر لا ينكره إلا جاهل بحقيقة اختلاف البشر وتباين إمكانياتهم.

ومن المضحك أن نقرأ لذلك " المسلم الماركسي!" قوله ... وإن جوهر الدين يفرض علينا أن نختار الاشتراكية اليوم طريقا لحل مشكلات عصرنا وبلدنا" ! ومعنى كلامه هذا أن الله – والدين وأحكامه من عنده يحثنا على اختيار الاشتراكية – وأحكامها من فكر واحد من خلقه – طريقا لحل المشكلات بديلا عن أحكامه جل شأنه!!

تهريج وسخف لا أدرى كيف يقبل إنسان أن يصدر عنه وليته اكتفى بذلك ، فقد خرج علينا بتعريف جديد للإسلام قال فيه (والعقيدة وما يتبعها من عبادات وأخلاق هى جوهر الدين وأساسه ، ليس من حيث الكيف فحسب ، بل من حيث الكم أيضا ، فهى تسعة أعشار تعاليمه أو يزيد . أما العشر الباقى فهو مجموعة الأحكام ذات الجوهر الخلقى أيضا لتنظيم وضبط بعض نواحى الحياة الاجتماعية) .

ليس هذا فحسب ! وإنما يعلن بكل صفاقة : " أن الإسلام

لا يرسم لنا الطريق ، وإنما نختاره نحن بعقولنا وتجربتنا وما ننقله عن التجارب الأخرى " .

أعتقد أن الأمر قد وضح الآن ! فبهذه الفقرة الأخيرة ينسف " قائد اليسار " الإسلام من أساسه ويحيله إلى مجرد قيم أخلاقية ويلغى تماما أحكامه المتصلة بأمور تنظيم الدولة .

ونود هنا أن نسجل إعجابنا الشديد بقدرة هذا (العبقري) على قياس (الكم الأخلاقى) فى الإسلام ، ولعله اخترع لذلك قياسا إلكترونيا حديثا حدد بواسطته هذه النسبة : تسعة أعشار أو يزيد !! .

وإذا كان لنا أن نعقب على هذا التهريج فإننا نقول لهذا ((الحاج)) أن العقيدة لا تمثل تسعة أعشار الإسلام فقط ، بل هى الإسلام كله ! فهى لا تعني مجرد العبادات والأخلاق كما يفهم ، وإنما تشمل النظام الإسلامي بقوانينه وأحكامه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتى تختلف تماما عن أية ((تجارب أخرى)) !

إن هذا الحديث عن ((القيم الأخلاقية)) يذكرنى بما

نردده دائما من أن الأزمة "أزمة أخلاق" وهو تعبير تنقصه الدقة ويخالفه الواقع . والصحيح أن نقول إنها " أزمة نظام " فالأخلاق لا تقوم اقتصادا يقوم على الربا ولا تغير من حكم لا يستند إلى الشورى . وإنما تصبح "أزمة أخلاق " فعلا لو كان النظام إسلاميا وانحرف به التطبيق لسوء فى الأخلاق . أما أن نتحدث عن الأخلاق فى غيبة كاملة للنظام فهذا من عجز القدرة على الحكم وتشخيص الداء!

أما " اليمين " فيلوح دائما بحكم " التكفير " تكفير اليسار، لأنه – استنادا لانتمائه الماركسي – لا يؤمن بالله.

وهنا يجب أن نتوقف لنناقش الاتجاهين معا!

هل حقيقة أن اليسار "كافر"!

للإجابة على هذا السؤال علينا أولا أن نفهم معنى "الكفر".

يقول العلماء أن الكفر قسمان : كفر اعتقادى وكفر عملى. أما الكفر الاعتقادى فهو عدم الإيمان بالله وتكذيب أحكامه ورفض أوامره عن إصرار واستخفاف بها . وصاحبه فى النار خالدا مخلدا فيها .

فى حين أن الكفر العملى هو عدم تنفيذ أحكام الله رغم إيمان الإنسان بالله وتصديقه لأحكامه وتشريعاته. والحكم على صاحبه لا يعلمه إلا الله ، وذلك استناداً لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء: ٤٨]

وهذا ما دفع ببعض المفسرين إلى القول بأن الآية الكريمة ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾.

مقصود بها الحاكم الكافر كفراً اعتقاديًا.

أما الآيتان ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ ، ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة ٤٤، ٤٥، ٤٧] فمقصود بهما الحاكم الكافر كفراً عمليًا.

والواقع إننى حينما سمعت هذا التفسير من أحد كبار رجال " الحديث " فى عالمنا الإسلامى ، تساءلت : " ومالفارق بالنسبة لى "؟ إننى لا أهتم كثيرا بما سيلحق بالكافر يوم الحساب : إن كان فى النار أو أن الله سيغفر له. وإنما اهتم بما سيلحق بى كنتيجة لهذا الكفر . . . اعتقاديا كان أم عمليا . والواقع أن

النتيجة واحدة : حكم الله لا ينفذ ! فما الفارق إذن من أن يكون السبب هو كفر الحاكم كفراً اعتقاديا أم عمليا؟!!

وعدت مرة أخرى للبحث فى حالة ذلك "المسلم الماركسى " أو "المسلم اليسارى" ! فوجدت أنه يؤمن ويدعو لنظام اقتصادى وسياسي واجتماعى مغاير تماما للتصور الإسلامى الذي يؤمن به كل من يؤمن بالله.

إذن فهذا اليسارى هو كافر لا شك فى ذلك. بل إننى لا أستطيع أن أنفى عنه هذه الصفة حتى ولو نطق بالشهاديتن وأقام الصلاة وحج البيت!(*) فالمسألة ليست مظاهر وشعائر تؤدى لا يعلم إلا الله مدى صدق صاحبها وإيمانه بها. فهذه الشعائر ما هى إلا علاقة خاصة بين العبد وربه لا تفيدنى بشيء إلا بمقدار انعكاس نتائجها على علاقات الإنسان بسائر البشرية وهو ما يتضح أكثر بالنسبة لطبيعة النظام الذي يدعو إليه ، فإن كان نظاما لا يطبق أحكام الله فإنه لن يلحق بالبشرية إلا الدمار

(*) الكفر الاعتقادى مرجعه إلى الله ولا يوصف به إلا من ينكر وجوده سبحانه وتعالى. فنحن هنا نتحدث عن الكفر العملى الذى يرفض صاحبه تطبيق أحكام الله.

والضياع حتى ولو كان صاحبه يصلي فى اليوم مائة ركعة ! ولا أدرى كيف يتوقع أن يكون حكمنا على إنسان يدعو لتطبيق أحكام مخالفة لما أمر الله به ؟ !

ومتى نعتبر الإنسان كافرا إذن ونحن نتردد فى تكفير من يرفض أحكامه ويستخف بها ، بل وينكرها أصلا؟!

إننى بالطبع لا أقصد " اليسارى " الجاهل ، وإنما أؤكد على تكفير قادة اليسار الذين يعلمون تماما حقيقة الاختلاف بين الإسلام والماركسية، فنحن لا نتصور أن يكون " الحاج قائد اليسار" جاهلا بالأساس الفلسفى الماركسى والأساس العقائدى الإسلامى!!

وحتى لا يغبط " اليمين " لهذا الحكم الإسلامى على أصحاب اليسار ، نسرع فنؤكد أن هذا الحكم ينطبق أيضا على أتباع اليمين – اليمين الرأسمالى – وذلك أن النظام اليمينى الرأسمالى يقوم هو الآخر على تصور مخالف تماما للتصور الإسلامى، فنحن هنا نهتم بتصور الإنسان الخاص عن الحياة وفى ذلك يصبح " اليمين " كافرا شأنه شأن " اليسارى " تماماً !

لكن ، ما أهمية هذا الحكم؟

أهميته تنحصر فى أمر واحد هو رفض المسلم لأن يقوده وينظم حياته ويحكمه "كافر" ! والقضية بالنسبة لنا ليس لها أى أبعاد أخرى ، فنحن لا نهتم كثيرا بتكفير هذا أو ذاك بل ولا يهمنا أيضا السماح لقادة اليمين واليسار بالدعوة لمبادئهما، وإنما نحن نهتم فقط بحماية الشباب المسلم من أن تزل قدماه وينضم " للعبة" ويشارك فيها !

إن المسلم حينما يرفض القيادات اليسارية واليمينية – ومن قبلهما القيادات اللافكرية – فإنه يؤكد بهذا فهمه الصحيح لإسلامه لأن من يخضع لله وحده يستحيل عليه أن يتقبل فكرة خضوعه لنظام يخالف الله . وهكذا يشعر المسلم بعزته وكرامته وحريته وثقته فى قدرته على الاستقلال بتكفيره عن سائر الأفعال والأقاويل التى تصدر عن أفراد – أيا كانت مواقعهم – لا ينتمون إلى " حزب الله "(*).

إذا كان التصور الإسلامى ينشئ إنسانا متوحدا فى ذاته

(*) المقصود هو المعنى الذى جاء فى القرآن الكريم فى سورة المجادلة ولا علاقة له بأى حزب سياسي معاصر والطبعة الأولى من هذا الكتاب صدرت قبل سنوات من تكوين حزب الله اللبنانى

مؤمناً بشمول وكمال الأحكام الإسلامية ، فإن هذا لا يعنى أن الإسلام وسط بين نظامين كما يعتقد الكثيرون . ولعلنا نحتاج لفهم هذا المعنى أن نشير لتفسير الآية الكريمة ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة : ١٤٣].

((أمة وسطا)) . . فى التصور والاعتقاد . . لا تغلو فى التجرد الروحى ولا فى الارتكاس المادى. إنما تتبع الفطرة المتمثلة فى روح متلبس بجسد ، أو جسد تتلبس فيه الروح . وتعطى لهذا الكيان، المزدوج الطاقات، حقه المتكامل من كل زاد .

((أمة وسطا)) . . فى التفكير والشعور . . لا تجمد على ما علمت وتغلق نوافذ التجربة والمعرفة . . ولا تتبع كذلك كل ناعق ،وتقليد القردة المضحك . . إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول .

((أمة وسطا)) . . فى التنظيم والتنسيق ، ولا تدع الحياة كلها للمشاعر ، والضمائر ، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب. إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب ، وتزاوج بين هذه وتلك.

((أمة وسطا)) .. فى الارتباطات والعلاقات .. لا تلغى شخصية الفرد ومقوماته ، ولا تلاشى شخصيته فى شخصية الجماعة أو الدولة ولا تطلقه كذلك فردا أثرا جشعا لا هم له إلا ذاته(*).

هذا هو الإسلام . ولهذا يرفض المسلم أن يقال إن الإسلام وسط بين اليسار واليمين . فالواقع أنهما يمثلان تجمعا واحداً لحزب الشيطان وفى مقابلها يمثل الإسلام تجمع ((حزب الله)).

وإذا كان هذا هو موقف المسلم تجاه الفكر اليسارى واليميني، فإن موقفه يصبح أكثر تشددا فى الرفض والاستنكار تجاه أصحاب "اللافكر" فإن من فكر وأخطأ يكون قد استخدم خاصية أودعها الله فيه بغض النظر عن حسن استخدمه لها أو سوء استخدامه أما ذلك الذي لا يفكر على الإطلاق – صاحب الفكر "الترابى" !– فإنه يبطل ويشل إرادة التفكير التى ميزه بها الله عن الحيوان . . فهو والحيوان سواء !

والدول كذلك كالأفراد . . أقلها شأنا تلك التى لا تتميز

(*) عن " فى ظلال القرآن" للشهيد سيد قطب .

بين الأمم بفكر واضح مستقل . والضحية فى تلك الدول ((اللافكرية)) هم الشباب الذين تتعاقب عليهم الأحكام والقوانين فلا تتاح لهم فرصة التخطيط لمستقبلهم ولا تنعم نفوسهم بالاستقرار والطمأنينة أبدا .

وفى كثير من الدول ((اللافكرية)) تشارك مجموعات أخرى متعددة فى لعبة ((اليسار واليمين)) بحيث تتسع الساحة لتشمل لاعبين جدد ينصبون من عقولهم حكما يديرون به شئون اللعبة ! .

ومن هنا تنفجر مشكلة ((الفكر)) و((المفكرين)) والضحية – مرة أخرى – هم الشباب ، الذين تبهرهم أحاديث من ينسبون أنفسهم لمجموعة المفكرين ، والشباب لا يجد أمامه من حل فى النهاية إلا تصديقهم والاقتناع بأحاديثهم لأنه لا يرى ولا يسمع من متكلم أو متحدث غيرهم ! ونود أن نؤكد هنا على أن الإسلام لا يدعو مطلقاً لتجميد ملكة التفكير أو الانتقاص من أهمية وقدرة العقل على مواجهة المشاكل وحلها . لكن للعقل الإنسانى حدوده التى تنحصر فقط فى الاجتهاد فيما لا نص فيه ،

أما فى مجال العلم فالإسلام يطلق الحرية كاملة للعقل ليقيم الحضارة المادية بشرط أن لا تخرج الإنسان عن دائرة ((حزب الله)).

لكن الأمر يختلف تماماً فيما يتعلق بمجال الفكر، فالالتزام هنا بالمنهاج الإسلامي ضرورة يحتمها إيمان الإنسان بالخالق المدبر ومن هنا لا ينبغى للإنسان أن يستقل بمنهاج خاص وقد أمده الله بالمنهاج الصالح لتربية الإنسان وتقويم شخصيته وتحديد مساره فى الحياة .

بل إنه حتى فى مجال العلم ، يلتزم المسلم بقواعد وأسس التفكير الإسلامى . لنعرض – توضيحا لذلك – مثالا غاية فى البساطة ومن واقع حياتنا.

إن المسلم إذا ما عالج مشكلة المواصلات مثلا فإنه يلتزم بقواعد إسلامية عامة تحدد مجال تصورة للحل داخل إطار معين فمثلا هو يلتزم بقاعدة عدم الاختلاط وواجب الدولة فى توفير سبل الانتقال بسهولة ويسر ، كذلك احترام المواعيد وعدم الاعتراف بتميز طبقة نتيجة ثرائها وغناها.

ماذا يعني كل هذا ؟ وكيف يوجه هذا الالتزام تفكير المسلم وهو يبحث عن حل ؟

إنه يعني أن تخصص سيارات للنساء وأخرى للرجال ، وأن تلتزم الدولة بإصلاح الطرق وتعبيدها ، وأن تلتزم هيئة المواصلات بمواعيد ثابته لتسيير وحدات النقل ، وأن تتوحد قيمة الأجرة فلا " درجة أولى" مريحة ومكيفة ، " ودرجة ثالثة" تجعل من السفر عذابا ومشقة!

هذا هو الإطار العام ، أما اختيار طريقة إصلاح الطرق أو نوعية السيارت المستخدمة فهذا أمر لا علاقة له بالفكر ، وللعقل حرية الاختيار فيما يراه أنفع وأصلح .

فإذا كان للإسلام تميزه فى علاج مشكلة بسيطة كهذه ، فما بالك بقضية بناء الفرد ؟!

لكن كيف يتميز الإنسان المسلم بخصائص واتجاه معين فى التفكير؟رهنا يبرز دور الفكر فى مجالات التربية والتعليم والثقافة والإعلام . إن الدول ((الفكرية)) تحرص على تأصيل مناهج تلك المجالات بحيث تتجه جميعها فى اتجاه تنشئة الفرد نشأة تميزه وتشكيل شخصيته وأسلوب تفكيره بما يتفق وعقيدة الأمة.

أما فى الدول ((اللافكرية)) فنرى المناهج تتعارض ، والأفكار تتنوع وتختلف ، والأفراد يتجه كل منهم فى واد مستقل بتفكيره .

والنتيجة لهذا كله ضياع وخراب وهزائم . . . ونكسات!

والأخطر من ذلك أن الحاكم ، وقد فشل فى تجميع قاعدة شعبية يستند إليها فى حماية النظام الذي يدعو إليه – إن كان يدعو لنظام أصلا ! ، لا يجد أمامه إلاطريق الديكتاتورية والإرهاب لحكم البلاد .

ومنطقتنا العربية تكاد تتميز بهذا الخلط والانحراف فى التفكير . ومنذ أيام فقط صدر دستور دولة عربية – لا تفتأ أن تعلن عن تعاطفها مع المعسكر الشرقى فى حين أن معظم معاملاتها الاقتصادية والتجارية تتم مع المعسكر الغربى ! – وقد نص دستورها على ((احترام الدين واختيار الاشتراكية أساسا للحكم)) .

ولا أدرى كيف نحترم الدين ثم نختار الاشتراكية بديلا عنه؟

ولنا أن نتعجب من أمر شباب تلك الدولة . . هل سيلتزمون فى بناء شخصيتهم بالمنهاج الدينى أم الاشتراكي ؟!

مأساة !

مأساة تعيشها منطقتنا العربية ، بل أمتنا الإسلامية منذ أن انحرفت الخلافة الإسلامية حتى انهارت تماما على يد الديكتاتور العميل ((أتاتورك)) .

نعود لما بدأنا به واتجه بنا لهذا الاستطراد عن أهمية الالتزام الفكري. وحديثنا عن موقف بعض من يشاركون فى ((اللعبة)) باستقلال عن الفلسفتين اليسارية واليمينية .

ونحب أن نؤكد أولا رفضنا لموقف ((المستقل)) الذى يعالج قضايا الفكر بمنأى عن العقيدة والمذهبية الإسلامية .

وإذا كان البعض يرى فى موقفنا هذا تعصبا ، فإننا لا ننكرتعصبنا . . بل ونؤكد إننا متعصبون . متعصبون وملتزمون ومؤمنون بخالق الحياة والوجود !

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون :١-٦] .

ويحضرنى الآن نموذج لكاتب يتابع الكثير من الشباب المثقف آراءه بإعجاب وتقدير . . . بعد أن لعب بالورقة الرابحة : الكتابة فيما يعانيه الشعب من مشاكل . وما أسهل هذا النوع من الكتابة!

ولست هنا بصدد مناقشة ما يكتبه ، لكن أود أن أشرك القارئ معى فى تساؤلى ودهشتى من تقدير الشباب لكاتب لا تلمس فى كتاباته التزامه بأى فكر على الإطلاق ! والواقع أنه يعتمد – لكسب هذا التقدير – على تلميحه المستمر للفترة التى أبعد فيها يوم أن تحررت الدولة من سيطرة الشيوعيين على أجهزة الإعلام ، رغم أنه ينفى الآن عن نفسه انتمائه الماركسى!

مواقف يشترى بها أصحابها الزعامات ! وننسى الآلاف من المسلمين الذين دفعوا ثمن تمسكهم بالعقيدة سنين امتدت من شبابهم إلى شيخوختهم وهم خلف أسوار المعتقلات والسجون . وعشرات غيرهم كانت حياتهم هى الثمن .

ما الفارق بين الموقفين ؟

لقد كان هدف أولئك الشهداء إقامة المجتمع الخاضع

لأحكام ونظام الخالق ، فما هو هدف كتابات " الدكتور " صاحب "مفكرة أهرام الجمعة "؟ (*).

لقد سمعته فى حديث له بإذاعة (صوت العرب) يقول للمذيعة : (إننى أحمل رسالة أسعى لتحقيقها) فلما سألته عن هذه الرسالة ، رد : (لا أدرى بعد)!!

وفى إجابة له – فى جريدة المساء – لسؤال عن هدفه من الكتابة ، كان رده : ((إننى لا أدرى لماذا أكتب ، وحينما أعرف سأكف عن الكتابة))!!

إجابات وردود سخيفة لا معنى لها. لكنها العبقرية فى عالمنا اليوم . . أن تقول ما لا يفهمه الناس !

ومن المؤسف أن هذا (الطبيب) احتج وثار ثورة عارمة حينما حملت إليه رسائل المسلمين رفضهم واستنكارهم لتحريفه أحد أحاديث رسول الله ﷺ واستخدامه فى غير موضعه ، واعتبر ذلك إرهابا دينيا !! لقد استنكر أن يرفض المسلمون آراءه واجتهاداته الإسلامية بحجة أن الإسلام ليس حكرا على أحد ، بل

(*) الكاتب يوسف إدريس

وادعى أن فهمه للإسلام أعمق من فهم هؤلاء أصحاب (الهوس الدينى)!!

ونحن نوافقه على أن الكتابة فى الإسلام ليست حكرا على مجموعة معينة ، لكن ألا يتفق معنا أصحاب المنطق على أنها حكراً على المسلمين فقط ؟!

والآن . . . من هو المسلم ؟

المسلم لا يجهل رسالته فى الحياة .

المسلم يعلم تماماً لماذا يكتب .

المسلم لا ينقد بدون أن يقدم البديل والحل .

المسلم لا يرفع شعارات براقة من أجل زعامات زائفة .

المسلم يجاهد من أجل إقامة مجتمع يعبد فيه الله .

المسلم – أولا وأخيرا – يلتزم بالفكر الإسلامى .

فأين هو – وبنص كلامه – من كل هذا ؟ !

الواقع إننا – كشباب مسلم – نحتاج إلى تحديد مقاييس رفضنا أو قبولنا لما يكتبه الكبار . وفى هذا علينا أن نتحرر تماما

– ونحن الأحرار بعبادتنا لله وحده – من قيود احترام الجديد للقديم أو الصغير للكبير بدون تحديد واختيار ، فالمسلم القوى الواثق من نفسه لا يعترف بالواقع مهما علا شأنه إلا بمقدار مواكبته وخضوعه للفكرة الإسلامية .

أقول هذا لأن كثرين من الشباب يظن أن دافعنا لرفض هؤلاء ((الكبار)) هو الغرور والاستكبار والتعالى . وهذا بالطبع غير صحيح فنحن إذ نرفض الأقلام غير الإسلامية ، لا يعنى هذا أننا لا نحترمها ، فلكل رأيه وتفكيره . لكن كيف – بالله – نحترم إنسان لا يعرف لماذا يكتب ؟!

أرجو أن نتدبر الأمور بوعى وفطنة ، ولتكن لنا شخصيتنا المستقلة التى لا تتأثر بدعايات ونفوذ أعداء الله .

وإذا كان المسلم لا يضيره انحراف قلم لا يلتزم صاحبه بالإسلام ، فإن أشد ما يزعج النفس ويؤلمها قصور فهم وتصور بعض الشخصيات التى كان لها مواقف ثابتة فى الدفاع عن الحق والتمسك به ، وذلك فيما يتعلق بقضية الفكر كأساس لعلاج الواقع وتغييره .

لقد قرأت لأحد أعضاء مجلس الشعب – ويقال إنه استقال من وزارة الحاكم السابق – قوله ((إننى أسعى لمعالجة المشاكل بطريقة واقعية لا تعتمد على قوالب فلسفية يمينية كانت أم يسارية)).

واسمحوا لى أن نتوقف قليلا لمناقشة ((الدكتور)) صاحب هذا الرأى . إن أحدا لا ينكر أن الطريق الأمثل – بل الوحيد – لحل المشاكل هو معالجتها بأسلوب واقعى . بيد أن هذا التعبير تنقصه الدقة ، بل – وليسمح لى الأستاذ الدكتور – يحيد تماماً عن مسار المنهاج الإسلامي .

إن مسألة ((العلاج بطريقة واقعية)) هذه يلجأ إليها من لا فكر له ولا تصور شامل متكامل عن الحياة . أما المنهج الإسلامي فيضع الحلول الواقعية داخل إطار المذهبية الإسلامية القائمة على أساس عقيدة التوحيد .

إننا لا ننكر أن الإسلام قد عالج المشاكل الجاهلية بطريقة واقعية فإن معظم آيات التشريع قد نزلت لبيان حكم الإسلام فى مشاكل واقعية يعيشها أفراد المجتمع فى حياتهم الخاصة والعامة

غير أن هذا كله كان يتم فى ظل عقلية التوحيد التى تميزت بها الشخصية الإسلامية .

إن المرء ليجد نفسه مضطراً لاحترام أصحاب الرأي القائل بحل المشاكل فى ظل قوالب فلسفية . . . يمينية كانت أم يسارية رغم أنها قوالب تخضع لسيطرة ((حزب الشيطان)). ولو كان الإسلام قد جاء بلا منهاج أو عقيدة متكاملة لكان علينا أن نتلمس الحلول عند أصحاب هذه القوالب الوضعية فهذا أدعى لاستقلالية الإنسان وتميزه. أما وقد تميز الإسلام بمنهاج إلهى شامل متكامل فإنه يصبح من الخطأ الجسيم أن نتصور حلا واقعيا لمشاكلنا بغير رد مفهوم هذا الحل لأساس المذهبية الإسلامية .

إن المجتمع الإنسانى – عامة – يتعرض الآن لخلل وتصدع ينذران بأزمة قد تودى بالحضارة المادية التى قطع الإنسان فى طريق تحقيقها شوطاً كبيراً . لذا لم يعد يجدى ، فى مواجهة هذا الخطر ، أسلوب الحل الذي يعتمد على تجزئة المشاكل وبحثها بحثا واقعيا خارج إطار النظرة الشاملة النابعة من أساس فلسفى أو عقائدى .

وقد يفيد أسلوب ((الحل الواقعى)) فى معالجة مشاكل

وقتية تهدد مرافق المجتمع ، أما التفكير فى إعادة بناء المجتمع على أسس جديدة فمجاله الفكر . والفكر ثابت لا يتغير إلا إذا كان فكرا إنسانيًا وضعيا فإنه يخضع للتغيير لقصور العقل البشرى . أما الفكر الإلهى فخصائصه ثابتة ، ومعجزته تكمن فى قدرته على حل ما يستجد من مشاكل عن طريق ردها للنظرة الشاملة التى تميز الشخصية الإسلامية المؤمنة بهذا الفكر.

إننا نتصور أن التحدى الذي نواجهه هو إعادة بناء المجتمع وإعادة ترميم مرافقه فقط . إن بناء المجتمع يعنى أولا وأساسا بناء الإنسان . ولذا فنحن نؤكد دائما على أهمية تأصيل المشاكل ورصدها بمنظار فكرى يهتم أول مايهتم بقضية الإنسان .

إن بناء المرافق المختلفة ليس بالمشكلة المستعصية ولا يحتاج منا لمثل هذا الجهد الذى نلمسه فى خطب ومقالات القائمين على الأمر.

كما أن هذه الأمور جميعها ليست مجالا لاختلاف أصحاب الفكر والرأي.

لكن لنا أن نتساءل : ثم ماذ بعد ؟

هب أننا استقدمنا كبرى الشركات – يسارية كانت أم

يمينية !- ونجحت فى إعادة بناء كل منهار ومحطم من مرافقنا . . هل تنتهى بذلك مشاكلنا ويتحول شقاؤنا إلى سعادة واطمئنان .

إن فى العالم العديد من الدول التى ينعم فيها الإنسان بحياة رغدة مريحة ، فهل تتحقق له السعادة فى ظل هذه الحياة ؟

اسمحو لى أن نتذكرما أرجو أن نكون قد وعيناه وأدركناه :

إن الإنسان لم يخلق عبثا ، وإنما خلقه الله - سبحانه وتعالى - لكى يعبده . ومن خصائص هذه العبادة أن يعمر الأرض وفق قوانين خاصة أودعها الله فى رسالاته السماوية . ومن المؤسف حقًا أن يغيب عنا هذا المفهوم ونحن أبناء المنطقة التى خصها الله وشرفها بتلقى رسالاته وأحكامه .

عجباً لهؤلاء الشباب الذين يمضى بهم الوقت وهم فى الطرقات هائمون . . وفى الملاهى يلهون . . لا تكاد نجد فى تفكيرهم ما ينم عن إحساسهم بالمأساة التى نعيشها!

عجباً لقادة يلتمسون الحلول وهم عن مجال الفكر معرضون .

عجباً لمؤتمرات تعقد وخطب تلقى . . تناقش مختلف المشاكل وتنأى عن دراسة أساس المشكلة . . الإنسان! ابحثوا ياسادة عن الإنسان .

الإنسان هو الأساس لكل بناء .

الإنسان يبنى المصانع . . والمصانع لا تبنى الإنسان .

فأين أنتم من قضية الإنسان ؟!

مسكين ٌنت أيها الإنسان . .

لم يعد يهتم بأمرك أحد .

ونحن هل ننساق مع القطيع ؟هل نستسلم للتيار ؟

هل نرضى بالواقع الجاهلى ؟

هل نهجر كتاب الله ونظامه؟

لا أعتقد . لا أعتقد والله سبحانه وتعالى قد وصفنا فى كتابه الكريم : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

[آل عمران : ١١٠]

لا أعتقد إننا نرفض هذا التكريم الإلهي العظيم .

والأمر لا يتطلب منا أكثر من حسم قضية الاختيار .

إما أن نختار حزب الله فنكون من المفلحين ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة:٢٢]

أو نختار حزب الشيطان فنكون من الخاسرين ﴿ **أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [المجادلة :١٩].

لكن ماذا بعد الاختيار ؟

يبدو أنه من السهل أن نتكلم ونكتب ، ومن الصعب أن نعمل ونضحى !

لقد كنت أفضل أن نتخطى الحديث عن " الاختيار " لنبدأ مباشرة حديثنا عن " ما بعد الاختيار " لكن ماذا نفعل والشباب من حولنا يتجادلون ويختلفون حول اليسار واليمين ، وتغيب عنهم حقيقة الإسلام المستقلة عن كلا النظامين ؟ !

لقد شعرت أنه من الضرورى أن نبدأ أولا بعرض قضية "الاختيار " حتى إذا ما ناقشنا ما هو " بعد الاختيار " لا نفاجأ بمن يقول لنا اشتراكية وناصرية ورأسمالية ... إلى آخر مسميات أجنحة حزب الشيطان .

وكم كنت أود أن نبدأ الآن من حيث انتهينا ، لكنى أعتقد أنك – عزيزى القارئ – تتفق معى على أهمية وخطورة موضوع كهذا ، لذا أرى أن نفرد لهذا البحث كتابا مستقلا أدعو الله أن

يلهمنا الصواب ونحن نسعى إلى معرفة ما هو مطلوب منا بعد أن اخترنا الإسلام طرقا لنا

أدعوك – أخى المسلم – إلى مشاركتى فى دراسة المنهاج الإسلامى الذي يحدد لنا طريق وأسلوب بناء الدولة الإسلامية ، خاصة وأن القضية تستوعب أكثر من موضوع يتطلب منا دراسة وافيه متعمقة نستنير فيها بهدى السنة النبوية الشريفة .

إن الجهد المطلوب فى بحث ودراسة هذه القضية المصيرية ، يحتاج منا إلى تبادل فى الرأى والمشورة .. حتى إذا ما تجمع لدينا التصور المتكامل عن الحل خرجنا على الأمة فى كتاب قادم بإذن الله .

ولى كلمة أخيرة أود أن أتوجه بها للقراء كافة : من اختار منهم الإسلام ومن اختار ما شاء من أنظمة أخرى .

الأخلاق بدون قانون لا تبنى أمة .

القانون بدون أخلاق لا يقيم نظاما .

الإنسان هو الأساس .

هو الأداة وراء كل أداة .

القاهرة ١٤٣٢هـ
٢٠١١م

وائل عثمان
Waelosman@Gmail.com

المراجـع

* أصول الفلسفة الماركسية – جورج بوليتزر – جى بيس – موريس كافين .

* حوار مع الشيوعيين – عبد الحليم خفاجى .

* مستقبل الحضارة بين العلمانية والشيوعية والإسلام – يوسف كمال محمد .

* مراحل النمو الاقتصادى – و . و . روستو .

* الشيوعية والإنسانية – العقاد .

* أفيون الشعوب – العقاد .

* أسس الاشتراكية العربية – الدكتور عصمت سيف الدولة .

* فى التاريخ .. فكرة ومنهاج – سيد قطب .

* ألف باء النسبية – برتراند راسل .

* الإنسان ذلك المجهول – الكسيس كاريل .

obeikan.com

* الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربى – الدكتور محمد البهى .
* الإسلام والحضارة الغربية – الدكتور محمد محمد حسين .
* خطوط رئيسية فى الاقتصاد الإسلامي – الدكتور محمود أبو السعود .
* الاقتصاد الإسلامى . . مدخل ومنهاج – الدكتور عيسى عبده .
* تفسير آيات الربا – سيد قطب .
* الربا – أبو الأعلى المودودى .
* العدالة الاجتماعية – سيد قطب .
* المسلم فى عالم الاقتصاد – مالك بن نبي .
* دراسات إسلامية – الدكتور محمد عبدالله دراز .
* خصائص التصور الإسلامى ومقوماته – سيد قطب .
* منهاج الفن الإسلامى – محمد قطب .
* ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ – أبو الحسن الندوى .
* الإسلام على مفترق الطرق – محمد أسد .
* مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة – أبو الأعلى المودودى .
** ومراجع أخرى أشرت إليها فى موضعها .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
هذه السلسلة	٣
مقدمة	٥
لماذا هذا الكتاب ؟	٧
اليسار واليمين	١١
الفكر والعبث	١٩
اليسار	٢١
المادية الجدلية	٢٩
شخصية ماركس	٥٣
المادية التاريخية	٧٥
التطبيق	٨١
اليمين	٨٩
الحرية	٩٧
الربا	١٠٧
الإسلام	١٣٧
المسلمون فى لعبة اليسار واليمين	١٦٠
المراجع	١٨٩
الفهرس	١٩١

obeikan.com

المؤلف فى سطور

- من مواليد القاهرة عام ١٩٥٠م.
- تخرج فى كلية الهندسة - جامعة القاهرة عام ١٩٧٤.
- حاصل على ليسانس الحقوق جامعة عين شمس عام ٢٠٠٣م.
- نشأ فى بيت أزهرى والده الشيخ محمد عثمان المستشار بمحاكم مصر والكويت. جده الشيخ عبد الله جاد الحق رئيس المحكمة الشرعية العليا.
- من قيادات الحركة الطلابية بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٤ ومن مؤسسى جماعة «شباب الإسلام» بهندسة القاهرة عام ١٩٧٣ والتى يؤرخ بها كبداية لظهور الإسلام السياسى فى القرن العشرين بعد الظهور الأول للشيخ حسن البنا.
- استمر فى إصدار مجلة حائط تحت اسم «آراء حرة» طوال مدة دراسته الجامعية والتى أبرز من خلالها الوجه الإسلامى للحركة الطلابية بعد أن كانت تحت سيطرة الاتجاه الشيوعي.
- من مواقفه المشهودة والتى سجلها فى كتابه «أسرار الحركة الطلابية» رفضه، ورئيس جماعة شباب الإسلام، عمل الجماعة تحت مظلة ورعاية الدولة ممثلة فى أمين تنظيم الاتحاد الاشتراكى وقتها ومحافظ أسيوط لاحقا السيد/ محمد عثمان إسماعيل فى حين وافق على ذلك بعض القيادات الإسلامية والتى أصبحت الآن من رموز العمل الإسلامى!
- فور تخرجه كتب أول مؤلفاته «حزب الله فى مواجهة حزب الشيطان» والذى اتخذه عنوانا لسلسلة كتبه بعد ذلك وقد قدم له فضيلة الإمام الراحل الشيخ محمد متولى الشعراوى وحقق وقتها رقما قياسيًا فى توزيعه فاق العشرين ألف نسخة فى عام واحد!
- تم اعتقاله ومنع من الكتابة فى عهد الرئيس أنور السادات بعد نشره لكتاب «أسرار الحركة الطلابية» والذى كشف فيه محاولات السلطة لوأد الحركة الطلابية وكذا سعى التيار الشيوعى للسيطرة عليها، وأخيرا زيف بعض القيادات الطلابية المنتسبة للتيار الإسلامى.
- عاود الكتابة مرة أخرى عام ٢٠٠٦ بعد سماعه لتسجيل محاضرة لأحد الدعاة - أبى إسحاق الحوينى - بعنوان «تمام المنة فى الرد على أعداء السنة» وهاله أن يكون المقصود بأعداء السنة هو إمام العصر الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - فكتب تحت عنوان «اغتيال الصحوة الإسلامية. تلاقى أعداء الخارج مع جهلاء الداخل» كاشفا زيف وكذب ادعاءاته، وفى الباب الثانى من الكتاب أوضح أن السعى لإقامة الدولة الإسلامية بالطريق السلمى هى الفريضة الغائبة الآن فى وعى المسلمين.
- يعمل حاليا استشاريًا فى التحكيم الهندسى والعقود الهندسية.